جامعة جنوب الوادي

كلية التربية بالغردقة

محاضرات فى تاريخ علم النفس

أولى عام (شعبة علم النفس)

إعداد قسم علم النفس

القسم الأول

تاريخ علم النفس

الفصل الأول
علم النفس الحديث والمعاصر
فذلكة تاريخية

بينا فى كتابنا « التراث النفسى عند علماء المسلمين » الرحلة التاريخية لعلم النفس خلال العصور القديمة والوسطى - حيث عرضنا لإنجازات علماء الحضارة اليونانية فى علم النفس القديم وإنجازات علماء الحضارة الإسلامية فى علم النفس الوسيط .

ويعتبر المؤرخون فتح الترك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م - وما تبعه من انهيار الإمبراطورية البيزنطية وهجرة علمائها إلى إيطاليا نقطة التحول من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، فما ذلك إلا لظهور هذه الأحداث وآثارها فى جملة الأحداث التى كونت نسيج التطور . ذلك أن المؤرخ المدقق لتاريخ علم النفس يرى أن التدرج هو قانون التحول العلمى بل التحول الاجتماعى أو التحول السياسى، تعمل على هذا التحول أسباب لطيفة عملا متصلا حتى يجىء يوم وقد برز للعيان تغير واضح وملحوظ .

وبالنسبة لعلم النفس فإنه يعتبر من أقدم العلوم إن لم يكن أقدمها على الإطلاق - ذلك أن الاهتمام بدراسة النفس الإنسانية قديم قدم التفكير البشرى، حيث انصرف اهتمام الفلاسفة وعلماء الدين إلى التفكير والتساؤل عن هذه النفس الإنسانية البالغة من التعقيد مبلغا كبيرا، وما تشتمل عليه هذه النفس الإنسانية من ميول وإنحيازات ودوافع واندفاعات وغرائز. وحاجات وما ينتابها من مشاعر الأفراح والأتراح وما تبديه من قدرة هائلة على التعلم والاستدلال والتفكير. هذه النفس

الإنسانية التى هى معجزة إلهية كبرى حيث خلقها الله سبحانه وتعالى وألهمها فجورها وتقواها .

لقد عكف الفلاسفة ورجال الدين قرونا متطاولة على التفكير فى هذه الموضوعات- ومع ذلك فإن علم النفس بالمعنى الحديث والمعاصر يعتبر من أحدث العلوم بحيث تصدق المقولة التى قالها عالم النفس الألمانى الشهير «هرمان أبنجهاوس» : أن علم النفس له ماضٍ طويل وتاريخ قصير .

ويجمع الجمهور من مؤرخى علم النفس على اعتبار عام ١٨٧٩ م هو التاريخ الذى ولد فيه علم النفس الحديث والمعاصر - وهو التاريخ الذى أنشأ فيه «فونت» مختبرا لعلم النفس فى مدينة « ليبزج» فى ألمانيا .

ولعل أبرز ما يميز علم النفس القديم - عند علماء اليونان وعلم النفس الوسيط عند فلاسفة الإسلام وعلم النفس فى مطلع العصر الحديث - هو أن علماء النفس هؤلاء أثناء تناولهم لموضوعات علم النفس المختلفة كان تفكيرهم يغلب عليه الصبغة الأرائكية القائمة على النظر والتأمل بينما يقوم علم النفس الحديث والمعاصر على دراسات تجريبية وإحصائية.

وسوف نقرأ فى صفحات هذا الكتاب كيف انتقل علم النفس من مرحلة العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث إلى المرحلة الحديثة والمعاصرة، أى انتقل من التفكير الأرائكى إلى التفكير التجريبى، وسوف نرى أن هذا الانتقال كان تدريجيا هينا لينا. إذ لا توجد طفرات فجائية - فى نظرنا على الأقل - فى تاريخ علم النفس، ومع ذلك فإننا نتفق مع جمهور المؤرخين على اعتبار عام ١٨٧٩ م هو العام الذى نبدأ به تاريخ علم النفس الحديث والمعاصر .

إن هدفنا فى هذا الكتاب هو أن نعرف كيف بدأ علم النفس ؟ وما الدروب التى سار فيها؟ ومن رجالاته العظام؟ وما المدارس التى أسسوها؟ وما الإنجازات التى حققوها؟

ومن المهم أن نعرض – فى التقديم التاريخى لعلم النفس – للعلاقة بين علم النفس من ناحية وبين كل من العلم والتاريخ من ناحية أخرى، فعلم النفس يعرف بأنه العلم الذى يدرس سلوك الإنسان بقصد الوصول إلى القوانين التى تحكم هذا السلوك. ولابد لنا أن نسأل ما العلم ؟.

العلم : هو الدراسة المنظمة فى مجال ما بقصد الوصول إلى القوانين العامة وذلك عن طريق المنهج العلمى، والعلم من شأنه أن يمكننا من زيادة معارفنا عن الظواهر التى يبحثها . ويتميز العلم بمجموعة من الخصائص تميزه من النشاطات الإنسانية الأخرى مثل الفن والأدب، وهذه الخصائص تتعلق بالنواحى الآتية :

الغـــرض : ذلك أن الغرض أو الهدف الأساسى للعلم، هو أن يقدم تقريرا موضوعيا عن الظواهر التى يدرسها .

مجال الدراسة : حيث يتخذ كل علم من العلوم مجالا للدراسة، فمثلا مجال الدراسة بالنسبة لعلم النفس هو السلوك الإنسانى، وقد يحدث تداخل فى هذا المجال، لأن كلا من علم النفس وعلم « الفسيولوچيا» يدرسان العلاقة بين حدة الانفعال وارتفاع ضغط الدم، ومن تنازع الاختصاص هذا تنشأ مجالات جديدة مثل علم النفس « الفسيولوچى ».

النتـائج : ذلك أن كل علم من العلوم يحاول الوصول إلى نتائجه عن طريق اختبار الفروض بالطريقة العلمية، وكلما كان العالم دقيقا فى تنفيذ خطوات الطريقة العلمية كانت النتائج التى يتوصل إليها نتائج دقيقة .

التنبؤ والضبط: حيث يحاول العلم أن يتنبأ بالظواهر ويحاول أن يضبطها، لأنه بدون التنبؤ والضبط لا يكون للعلم فائدة تطبيقية تذكر .

النظرية مقابل التطبيق : وتمثل العلاقة بين النظرية والتطبيق – أو بين العلم البحت والعلم التطبيقى – مشكلة أساسية، ولكن مهما كان الأمر فإن النظر يجب أن يكون فى خدمة التطبيق، كما أن التطبيق هو أحد المصادر الهامة للمشكلات التى يمكن للنظر أن يدرسها بالطريقة العلمية .

تحديد المصطلحات: حيث إن لكل علم من العلوم مصطلحاته الفنية التى يستخدمها ويعرفها أهل هذا العلم، ويجب على العالم أن يستخدم اللغة الفنية العلمية. وقد قام علماء النفس بجهود ممتازة فى سبيل إصدار القواميس ودوائر المعارف لشرح مختلف المصطلحات الفنية التى يزخر بها علم النفس .

* * *

تلك أهم خصائص العلم، ونرى أنها تنطبق فى أغلبها على علم النفس، وبذلك يمكن لنا أن نجيب على السؤال: هل علم النفس علم؟ .

نجيب بدون تردد - نعم.

وبعد توضيح فكرة « علمية » علم النفس نتادى إلى دراسة مفهوم « التاريخ » إذا كنا بصدد التعرض لتاريخ علم النفس ونسأل: ما التاريخ ؟ - والإجابة التى تتبادر إلى الذهن هى أن التاريخ تسجيل للأحداث وشرح وتوضيح لأهميتها، فمثلا نقول : إن « فونت » أنشأ أول مختبر لعلم النفس فى مدينة « ليبزج » عام ١٨٧٩م، ولكننا عادة لا نتوقف عند هذه الحقيقة بل نحاول أن نتبين أهميتها فى تاريخ علم النفس الحديث، وكيف أثرت على تطور علم النفس وتطور مناهج البحث فيه، ذلك أن طلاب علم النفس بحاجة إلى معرفة الأحداث الأساسية والحاسمة فى تاريخ علم النفس، فتجاهل الماضى معناه إهمال لمصدر أساسى لفهم هذا العلم لأنه إذا كان لنا أن نفهم الحاضر فلابد لنا أن نفهم الماضى ، وفى دراسة الماضى أمور مستفادة أهمها: تجنب ما حدث فيه من أخطاء أو تجاوزات، وعدم تكرارها، والاقتداء بكبار العلماء أصحاب الإنجازات الكبيرة وما تحفل به حياتهم من مواقف جديرة بالإعجاب.

وثمة سؤال أساسى نتوجه به ونحن نقدم على دراسة لتاريخ علم النفس، هذا السؤال هو: كيف حدثت التطورات العلمية والتاريخية فى علم النفس؟ كيف تقوم نظرية علمية على أنقاض نظرية أخرى؟ كيف تحل مدرسة من مدارس علم النفس محل مدرسة أخرى ؟.

ونقول – فى معرض الإجابة عن هذا السؤال – : لقد سادت فى دراسة تاريخ العلم– نظرية الرجل العظيم، وذلك خلال القرن التاسع عشر، ثم سادت خلال القرن العشرين نظرية « روح العصر » – وكل من هاتين النظريتين تفسر تاريخ العلم.

وبالنسبة لنظرية الرجل العظيم : Great man ، فقد سادت وانتشرت فى ذلك الوقت، حيث نشر المفكر الإنجليزى الكبير « توماس كارليل » Carlyl (١٧٩٥/ ١٨٨١ م كتابه الشهير « البطولة والأبطال » والذى بين فيه: أن التاريخ هو تاريخ الرجال العظام، وعلى ذلك فيمكن أن نعد الرجال العظام فى تاريخ علم النفس ، من الألمان « فخنر » و « فونت »، « أبنجهاوس» ، ومن الإنجليز: « مكدوجل »، ومن الفرنسيين: «بينيه»، ومن الروس: « بافلوف »، ومن الأمريكيين: «واطسون» و«سكنر».

أما إذا أخذنا بنظرية « روح العصر » Zeitgeiot، والتى قال بها «كوهن» Kuhn فى كتابه عن « الثورات العلمية» – الذى أصدره عام ١٩٧٠ – فإنه يمكن القول : إن روح العصر هى التى أملت على «فرويد» نظريته فى الشخصية، وهى التى أملت على « تنشتر » النظرية البنائية.

وسوف نأخذ – أثناء عرض هذا الكتاب – بموقف يجمع بين نظريتى «الرجل العظيم » من جهة و «روح العصر» من جهة أخرى، ونمزج بين أعمال الرجال العظام فى تاريخ علم النفس وطبيعة العصر الذى عاشوا فيه ، وهذا أدعى إلى فهم تاريخ علم النفس فهما جيدا .

وفى هذا المقام يحق لنا أن نتساءل عن المنابع التى تكون منها نهر علم النفس، أى القوى التى أثرت فى نشأته بصورة مباشرة أو غير مباشرة؟ وإجابة على هذا التساؤل، أو يمكن القول : إن الثقات من مؤرخى علم النفس يجمعون على عدة منابع هى :

الفلسفة : حيث كان الفلاسفة – قبل أن يعلن مولد علم النفس عام ١٨٧٩م – هم القائمون على دراسة علم النفس الأرائكى وموضوعاته، مثل تحليل العقل ونظرية المعرفة ، وكان علم النفس يعد جزءا من الفلسفة، وسوف تظهر الفلسفة منبعا أساسيا عندما نتحدث فى فصول الكتاب عن فلاسفة كبار – تناولوا الدراسات النفسية الفلسفية النظرية بمعالجات جيدة .

الفسيولوجيا: حيث أثر التقدم فى الفسيولوجيا - أو علم وظائف الأعضاء - على تقدم وازدهار الدراسة التجريبية فى علم النفس، وكان التقدم فى الدراسات الفسيولوجية فى القرن التاسع عشر تقدما كبيرا ، وسوف تتضح أهمية الفسيولوجيا من حيث كونها منبعا لعلم النفس عندما نتحدث عن العلماء الألمان فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين سواء من كان منهم « خارج » المدارس أم داخلها .

البيولوجيا : حيث أثرت الدراسات فى البيولوجيا أو علم الحياة، على الدراسات النفسية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ويبدو ذلك واضحا فى تأثر عدد كبير من علماء النفس بنظرية « دارون » فى النشوء والارتقاء .

وفى دراسته عن « الانفعال عند الإنسان والحيوان » لفت الأنظار «دارون» إلى دراسة علم نفس الحيوان وعلم النفس المقارن، وسوف تتضح أهمية البيولوجيا من حيث كونها أحد منابع علم النفس عندما نتحدث عن الوظيفية والسلوكية .

الطب: حيث أفادت الدراسات الطبية التى تلقاها بعض علماء النفس فى الاهتمام بدراسة السلوك اللاسوى، وتفسير أسبابه ومحاولة علاجه، وتبدو أهمية هذا المنبع عندما نتعرض بالدراسة لمدرسة التحليل النفسى .

* * *

وفى هذا ختام هذه الفذلكة التاريخية نطرح سؤالا، هو: لماذا ندرس تاريخ علم النفس؟ - هذا سؤال حيوى والإجابة أن دراسة تاريخ علم النفس تحقق لطالب العلم الفوائد التالية :

- إعطاء طالب العلم الشعور بالتواصل بين الأجيال المختلفة من العلماء والمفكرين ، ذلك أنه لا يمكن أن ينسب العلم أو أى تخصص إلى شخص معين أو جيل معين أو شعب معين، وإنما العلم - وعلم النفس جزء من العلم - هو تراث الإنسانية جمعاء شاركت فيه الشعوب المختلفة خلال الأحقاب المتطاولة .

● إعطاء طالب العلم أمثلة بكفاح العلماء ومعاناتهم فى سبيل طلب العلم - كغاية سامية شريفة - بحيث يشعر بالتواضع من جهة وبالحماس لتقليد هؤلاء العلماء من جهة أخرى .

● تكوين الحاسة النقدية : ونقصد بهذه الحاسة النقدية القدرة على النقد البناء وعدم التعصب للآراء والانحيازات السابقة والنظر إلى المسائل المطروحة بموضوعية وإيجابية .

ونذكر فى هذا المقام القول الذى يقول « أن الغرض مرض » ومعنى ذلك أن تصورا معينا سبق لنا أن كوناه معتقدين بصحته اعتقادا مطلقا فنرى فيه الصواب ونرى فى غيره الخطأ - هذا التصور قد يكون خطأ وقد يكون الصواب فى غيره .

● معرفة التطور الهائل الذى حدث في تاريخ علم النفس وأدى إلى هذا الكم من المعارف، هذا إلى جانب معرفة التوجهات المختلفة التى تحكم دراسة علم النفس حيث يركز بعض العلماء على دراسة الشعور ويركز البعض الآخر على دراسة السلوك ويهتم بعضهم بدراسة التعلم ويهتم البعض بدراسة القياس النفسى إلى غير ذلك من موضوعات .

● قد لا تهتم بعض مجالات العلم الأخرى - مثل العلوم الطبيعة - بدراسة تاريخ هذه العلوم ولكن الأمر بالنسبة لعلم النفس على خلاف ذلك نظرا للصلة الوثيقة بين مراحل تطور علم النفس عبر العصور المختلفة وهذا الاهتمام بدراسة تاريخ علم النفس راجع كذلك إلى أن الموضوعات التى يناقشها المحدثون والمعاصرون هى نفس الموضوعات التى ناقشها القدماء والأوسطون وإن كان هؤلاء قد غلب على تفكيرهم الجانب الأرائكى أما أولئك فقد غلب على تفكيرهم الجانب التجريبى الإحصائى .

ولعل أهمية دراسة تاريخ علم النفس هى من قبيل الأمور البينة بذاتها والتى لا تحتاج أن ندلل عليها بما أوردناه من أدلة سابقة !

★ ★ ★

الفصل الثانى

التراث الإسلامى فى الحضارة الأوربية

حدث تواصل فكرى بين التراث الإسلامى إبان العصور الوسطى وبين الحضارة الأوربية ، إذ إن هذا التراث كان المعين الذى استقت منه الحضارة الأوربية أسباب نهضتها

وقد كان انتقال التراث الإسلامى إلى الحضارة الأوربية عن طريقين :

أولا : صقلية

حيث فتحها المسلمون على يد الأغالبة عام ٢١٢ هـ (الموافق ٨٢٨ م) وقد وفدوا إليها بعقلياتهم ومذاهبهم ، ووفدت معهم إليها طائفة من الكتب العربية أو المنقولة إلى العربية متنوعة فى ثقافتها ، ومن هنا بدأ التلاقح والإخصاب فما هى إلا فترة قصيرة استراحت فيها بعض الراحة من الحروب والفتن حتى أنتجت إنتاجا متنوعا فى العلوم والمعارف المختلفة.

وفى مدينة « بلرم » التى اتخذها المسلمون عاصمة لهم فى صقلية أنشأوا أول مدرسة للطب لم يعرف مثلها فى العالم اللاتينى آنذاك ، وطالت أيام المسلمين فى صقلية حتى سنة ٤٨٤ هـ (الموافق ١٠٩١ م)

وعندما سقطت صقلية فى أيدى النورمان ساروا على نهج المسلمين فى التسامح وتنشيط الحركة العلمية فى الجزيرة ، فأبقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم واستعملوا فريقا منهم فى حروبهم وحاشيتهم فكان منهم القواد والعظماء والعلماء فى خدمة الدولة الجديدة وظلت اللغة العربية هى اللغة الرسمية طوال

عصر النورمان - وهكذا تخلق النورمان بأخلاق رعاياهم وعاملوهم معاملة نادرة فى التسامح الدينى والسياسى حتى اتهم البابوات أمراء النورمان بالميل إلى الإسلام - ومازالوا بهم حتى قضوا عليهم بهذه التهمة .

ويذكر من الحكام النورمان الذين اهتموا بتشجيع عملية نقل التراث الإسلامى إلى الحضارة الأوربية " رجار " أو " روجر " الذى أنشأ أكاديمية يعمل فيها العلماء المسلمون مع العلماء النصارى والعلماء اليهود جنبا إلى جنب ، وأحس بالحاجة إلى ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية ، ومن أمثلة ذلك أنه استحضر الكتب الجغرافية المؤلفة بالعربية أو المترجمة إليها من اليونانية مثل كتاب "العجائب للمسعودى" وكتاب الجغرافية " لبطليموس " - بل إن "رجار" استقدم العالم الجغرافى "الشريف الإدريسى" وبالغ فى إكرامه . وطلب منه أن يبقى فى صقلية وأن يحقق أخبار البلاد أى جغرافيتها - بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب . وجهز " رجار " "الإدريسى" بمجموعة من المساعدين والمصورين ليصاحبوه فى أنحاء جزيرة صقلية - ولما تكامل ذلك العمل أثبته الشريف الإدريسى فى كتاب سماه " نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " وهو من الكتب المهمة فى الجغرافية ، بل لقد عمل " الإدريسى" لـ "رجار" كرة أرضية من الفضة رسم عليها العالم ببره وبحره وسهوله وجباله وأنهاره وبحيراته !

ويذكر فى هذا المقام كذلك "فردريك الثانى" حاكم " نابلى " و "صقلية" الذى كان محبا للعرب وكان يعتقد أن العرب يمتازون بحرية الفكر والإخلاص للعلم ، وأصبح بلاطة معقلا للثقافة العربية والحرية الدينية . وقد نسب إلى هذا الأمير الافتراءات التى تضمنت اتهامه بالإلحاد واللامبالاة الدينية . وذلك لأن التراث العربى الإسلامى كان ينظر إليه نظرة ريبة وشك فى العصور الوسطى التى تميزت بالإنغلاق العقلى والتزمت الفكرى .

ثانيا : طليطلة

تمكن الأسبان من استعادة طليطلة عام ٤٧٨ هـ (الموافق ١٠٨٥ م) - وأخذ ملوك " قشتالة " يعملون على رفع مستوى شعوبهم ، ويذكر فى هذا المقام أن

"ريموندو" أسقف طليطلة وكبيرمستشارى ملك " قشتالة " هو الذى شجع النقل من العربية إلى اللاتينية ، ومن المهم أن نذكر أن " ريموندو " ظل يشغل منصبه أسقفا لطليطلة منذ سنة ١١٢٥ حتى وفاته سنة ١١٥١ ، وهذه فترة طويلة ساعد فيها على ترجمة تراث عظيم من العربية إلى اللاتينية .

ويذكر فى هذا المقام كذلك ملك قشتالة " الفونسو العاشر " الملقب بالحكيم ، وقد دفعه اهتمامه الشخصى إلى تشجيع حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية وإلى لغة قشتالة الأسبانية .

وتفسير الإقبال على ترجمة التراث العربى الإسلامى إلى اللغة اللاتينية هو التفسير الذى يورده الفيلسوف العربى الكبير ابن خلدون من ولع المغلوب بتقليد الغالب .

ومن أهم المترجمين فى تلك الحقبة :

أ - جنديسالفى (؟ - ١١٨٠م)

وهو أحد رجال المركز الذى أسسه أسقف "طليطلة" « ريموندو » وهذا المركز كان عبارة عن ديوان للترجمة أدى للغرب خدمات جليلة لا تقدر . وقد ساعده فى عملية الترجمة أحد اليهود الذى تنصر ، واسمه "يوحنا داود" أو" يوحنا الأسبانى" . ومن أهم ما ترجماه أجزاء من كتاب الشفاء لابن سينا هى المنطق وما بعد الطبيعة ومقتبسات من الطبيعيات وكتاب إحصاء العلوم للفارابى ورسالة فى العقل والمعقول للكندى ومقاصد الفلاسفة للغزالى .

ومن الطريف أن " جنديسالفى " أعد كتابا عن تقسيم الفلسفة مأخوذا بتصرف من كتاب " الفارابى " إحصاء العلوم ، وله كتاب كذلك فى خلود النفس مأخوذ من كتاب النفس لابن سينا .

ب - يوحنا الأسباني الفلكي

ولانعرف كثيرا عن سيرته الذاتية ، ويخلط الكثيرون بينه وبين يوحنا الأسباني. ويذكر أنه ترجم من العربية إلى اللاتينية عام ١١٣٤م كتاباً في الرياضيات للخوارزمي وبفضل هذه الترجمة عرفت أوربا الصفر فأدخلته في نظامها العددي (لاحظ أهمية الصفر في الرياضيات !)

جـ - جيرار الكريموني (؟/ ١١٨٧م)

من مدينة كريمونا بإيطاليا، وهو زميل " جنديسالفي " بديوان طليطلة وبقي فيها ماينيف عن عشرين عاما نقل فيها العديد من ذخائر التراث العربي الإسلامي مثل رسالة للكندي في المناظر ورسائل في العقل والمعقول والنوم والرؤيا . (جيرار الكريموني كان من أشد المعجبين بفيلسوف العرب) . كما ترجم كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وكذلك كتاب المناظر للحسن بن الهيثم .

د - هرمان الألماني (؟ / ١٢٧٢م)

لا نعرف الكثير عن سيرته الذاتية ولكنه ترجم من العربية إلى اللاتينية العديد من الذخائر مثل كتب ابن رشد عن الشعر والأخلاق والخطابة .

هـ - ميخائيل سكوت (؟ / ١٢٣٥م)

أسكتلندي - ترجم بطليطلة سنة ١٢١٧م بمعاونة أحد اليهود كتاب علم الهيئة للبطروجي وكتاب الحيوان لأرسطو وكتاب النفس وكتب الحس والمحسوس والنوم واليقظة والذاكرة .

وهو شخصية عجيبة نشأت حولها العديد من الأساطير فقد قصد إيطاليا سنة ١٢٢٠ وعرف فيها بمزاولة السحر ولكنه مع ذلك كان موضع حظوة في البلاط البابوي من سنة ١٢٢٤م إلى سنة ١٢٢٧م ثم التحق ببلاط " فردريك الثاني " ملك صقلية حيث واصل أعمال الترجمة لكتب أرسطو وشروح ابن رشد عليها . ومن الطريف أن نذكر أن

دانتى الليجيرى (١٢٦٥ - ١٣٢١م) مؤلف " الكوميديا الإلهية " وضع " ميخائيل سكوت" فى أصل الجحيم بسبب ما نسب إليه من قوى سحرية خارقة !!

تأثيرات التراث الإسلامى :

ويمكن أن نشير إلى بعض التأثيرات التى أحدثها نقل التراث العربى الإسلامى إلى أوروبا فى النقاط الآتية :

● من أبرز مظاهر الحياة الفكرية فى القرن الثالث عشر الميلادى النزاع حول أرسطو وشراحه الإسلاميين خاصة شارحنا الأكبر ابن رشد ، وقد أثارت الكتب التى ترجمت فى تلك الفترة تصورا أنها تخالف الدين بحيث استدعى ذلك تدخل السلطات الكنسية ففى عام ١٢١٠م أنكر مجمع كنسى عقد فى باريس تدريس كتب أرسطو وشروحها فى الفلسفة الطبيعية ، وفى عام ١٢١٥م نشرت لائحة جامعة بارسس فإذا بها تنص على الاستمرار فى تدريس منطق أرسطو وتبيح تدريس كتاب الأخلاق ولكنها تؤيد تحريم كتاب الطبيعة وشروحه ، وتحرم تدريس كتاب ما بعد الطبيعة وشروحه . وهذا التحريم كان منصبا على التدريس فقط ، ولكنه لم يتناول الدراسة الخاصة ولا تدوين الشروح ، ثم إنه كان مقصورا على جامعة باريس لصدوره عن سلطة محلية . فلما أنشئت جامعة تولوز سنة ١٢٢٩م برعاية نائب البابا أعلنت عزمها على تدريس الكتب المحرمة فى باريس.

● ويؤكد أستاذنا ومعلمنا يوسف كرم على أن الفلسفة الأوربية فى القرن الثالث عشر هى عبارة عن مواقف مختلفة من المعلم الأول أرسطو والشيخ الرئيس ابن سينا . والشارح الأكبر ابن رشد ، كما يشير يوسف كرم إلى أنه من ملامح القرن الثالث عشر الفكرية ظهور الأرسطوطالية الرشدية في كلية الآداب بجامعة باريس على يد مجموعة من الأساتذة يدينون بالولاء لفلسفة أرسطو وتأويل الشارح الأكبر لهذه الفلسفة .

● ولعله من نافلة القول أن نقول أن أرسطو اشتهر عند الأوربين فى العصور

الوسطى باسم الفيلسوف فإذا ذكر الفيلسوف فى كتاب من كتب ذلك العصور فإن أرسطو هو المقصود ، واشتهر ابن رشد كذلك باسم الشارح الأكبر أو المعقب .

ويذكر الأستاذ العقاد أنه حسب " ابن رشد " شهادة لشروحه أن الكتب التى نقلت عن اليونانية لم تغن عن هذه الشروح ، بل وبعد أن حرم أسقف باريس دراستها فى جامعتها وسماه رأس الضلال فى منتصف القرن الثالث عشر قامت هذه الجامعة نفسها بعد قرن فأخذت على أساتذتها المواثيق ألا يعلموا شيئا لا يوافق مذهب أرسطو كما شرحه ابن رشد ، وأصبحت كتبه مادة لا تنفد للدرس والمناقشة فى الأديرة والجامعات .

● كما يؤكد " مونتجمرى وات " على أن أوربا ظلت حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعتمد على التراث العربى الإسلامى فى عدة مجالات، وبالذات مجال الطب . ودليل ذلك قوائم الكتب المطبوعة ، ومن أشهر هذه الكتب موسوعة الحاوى " للرازى " أعظم أطباء العالم فى العصور الوسطى .

وفى عام ١٤٧٣م طبع كتاب القانون فى الطب " لابن سينا" – باللغة اللاتينية طبعا – ثم طبع مرة أخرى عام ١٤٧٥م وصدرت طبعته الثالثة قبل طبع أول كتاب لجالينوس ، وإذ استمر هذا الكتاب يدرس حتى بعد سنة ١٦٥٠م فيعتبر أنه أكثر ما درس فى الكتب الطبية فى التاريخ .

ويذكر " مونتجمرى وات " معلومة طريفة عن أحد المؤلفين الطبيين الأوربيين وهو " فيرارى دا جرادو " حيث ذكر ابن سينا أكثر من ثلاثة آلاف مرة ، وذكر كل من " الرازى " وجالينوس " ألف مرة فى حين لم يذكر أبو قراط " غير مائة مرة – و خلاصة القول أن الطب الأوربى – وهذا مجرد مثال – كان مجرد امتداد للطب العربى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بل وحتى منتصف القرن السابع عشر .

● كما يؤكد " جو ستاف لوبون " أنه لا يمكن إدراك أهمية شأن العرب فى الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها . فإذا رجعنا إلى

القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد حين كانت الحضارة الإسلامية فى أسبانيا ساطعة جدا رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون !! وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم فى مطالعة قدم الأقدمين !

ويؤكد " جوستاف لوبون " كذلك أن نهضة أوربا كانت بسبب دخول العلوم العربية إلى أوربا من مراكز هذه العلوم فى أسبانيا وصقلية وإيطاليا، ثم يسترسل "جوستاف لوبون " فى ذكر ما سبق أن نوهنا إليه فى عملية نقل التراث الإسلامى إلى الحضارة الأوربية . ويشير " جوستاف لوبون " إلى مقولة تقول " لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا فى الآداب عدة قرون "

ومن الأمثلة التى يذكرها " جوستاف لوبون " أن لويس الحادى عشر " عندما حاول تنظيم أمور التعليم سنة ١٤٧٣م فى فرنسا أمر بتدريس مذهب الفيلسوف العربى " ابن رشد " على أساس أن ابن رشد كان هو الحجة البالغة فى الفلسفة فى الجامعات الفرنسية آنذاك .

● ويذكر أستاذنا " عمر فروخ " أن أثر الفكر الإسلامى فى أوربا النصرانية كان عظيما رغم أن أوربا وقفت من الفلسفة الإسلامية عموما موقفين متعارضين - موقفا إيجابيا مطلقا وموقفا سلبيا عنيدا ، غير أن كلا الموقفين كان يدل على قيمة تلك الفلسفة . وعلى سبيل المثال - لا الحصر - يذكر أستاذنا عمر فروخ أن أثر الفيلسوف المسلم ابن طفيل (تعرضنا له بالحديث المفصل فى كتابنا التراث النفسى عند علماء المسلمين فالتمسه ثمة إن شئت) كان أثرا كبيرا على هذا الفكر ويدلل على ذلك بما يلى :

- أن قصة حى " بن يقظان " التى ألفها " ابن طفيل " ترجمت إلى اللغة العبرية سنة ١٣٤٩م وترجمت إلى اللغة اللاتينية سنة ١٦٧١ م . وترجمت ثلاث ترجمات إنجليزية أعوام ١٦٧٤ ، ١٦٨٦ ، ١٧٠٨م وترجمتين إلى الهولندية فى عامى ١٦٧٢ ، ١٠٧١م وترجمتين إلى الألمانية فى عامى ١٧٢٦ ، ١٧٨٣م وترجمة إلى

الأسبانية عام ١٩٠٠م وترجمة إلى الروسية عام ١٩٢٠م وقد طبعت كل ترجمة من هذه الترجمات مرات مدة !

- أن موسى بن ميمون " الفيلسوف اليهودى (نعرض له فى موضع قادم) تأثر فى كتابه " دلائل الحائرين " بقصة حى بن يقظان . كما تأثر ألبرت الكبير (نعرض له فى موضع قادم) رغم نقده الشديد لها ورغم أن محاولات ألبرت الكبير سارت على نفس خطى " ابن طفيل " فى محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين .

- أن جان جاك روسو (نعرض له فى موضع قادم) تأثر فى كتابه المسمى "إميل " أو "فى التربية" بأفكار ابن طفيل التي بسطها فى حي بن يقظان - حيث أشار " روسو " إلى أن طبيعة الإنسان طبيعة خيّرة .

- أشار الفيلسوف الألمانى " ليبتز " (نعرض له فى موضع قادم) إلى قصة حى بن يقظان ومدح الأفكار التي وردت فيها .

- نشرت قصة روبنسن كروزو لأول مرة سنة ١٧١٩م من تأليف المؤلف الإنجليزى " دانيال ديفو " . وقد أشار الشاعر والناقد الإنجليزى (المعروف آنذاك) " الكسندر بوب " إلى أن قصة " حى بن يقظان " كانت من النماذج الممتازة التى سار على منوالها " دانيال ديفو " . ومضمون قصة "روبنسن كروزو " أن أحد الأشخاص عاش وحيدا لمدة تزيد على ربع قرن فى جزيرة معزولة وقد توصل بعقله إلى أن يكتشف بعض الأمور ويتعلم العديد من الصناعات . ورغم أن احتمال تأثر دانيال ديفو بقصة حى بن يقظان وارد تماما . إلا أن ثمة فروقا كبيرة بين القصتين . لأن حى بن يقظان مر بجميع المراحل التى يمر بها العقل البشرى وصولا إلى أعلى درجات المعرفة . بينما شخص " روبنسن كروزو " غلبت عليه المعارف العملية ، كما أن الغاية الفلسفية والتأمل والنظر فى النفس وأحوالها أمر أساسى عند " حى بن يقظان " ولكنه أمر عارض عند روبنسن كروزو .

ونعلق على ما سبق بعبارة موجزة تقول أن أوربا استيقظت من سباتها العميق فى العصور الوسطى على علوم العرب المسلمين وآدابهم وحضارتهم التى انطلقت من الأندلس وصقلية إلى بقية بلاد أوربا .

حاشية : التراث الإسلامى فى عيون المعاصرين

يذكر مؤرخ علم النفس الكبير "جميس برنان Brenan ميلاد الرسول محمد ﷺ على أنه واحد من أخطر الأحداث فى العصور الوسطى ، ويدلل على ذلك بأن أتباع محمد ﷺ من المسلمين استطاعوا خلال قرن واحد فقط من الزمان أن يهزموا الإمبراطورية البيزنطية ويستولوا على معظم أملاكها فى آسيا ، كما أنهم استطاعوا إسقاط الإمبراطورية الفارسية ثم قاموا بضم مصر وشمال إفريقية واستعدوا لفتح أسبانيا !

ويذكر " برنان " باحترام تاريخ الدعوة الإسلامية وبدء نزول الوحى على سيدنا رسول الله منذ عام ١٦١٠م يتلقاه عن الروح الأمين جبريل عليه السلام . وهذا الوحى هو القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس . ويذكر " برنان " كذلك أن هذا الرسول الكريم استطاع خلال حياته توحيد معظم جزيرة العرب تحت لواء الإسلام وتابع أتباعه توسيع رقعة الإمبراطورية .

كما يشير " برنان" بعظيم الاحترام إلى أن الدولة الإسلامية الفتية عندما نجحت فى احتلال هذه الممالك الشاسعة، وخاصة ممالك الدولة البيزنطية فإن المسلمين استدمجوا فى حضارتهم ما عند هذه البلاد من حضارة ذات أصل يونانى عتيق وعريق ، مؤكدا على دور الدولة العباسية التى سادت العالم خلال العصور الوسطى (من ٧٥٠م - ١٢٥٨م)

هذا الدور الذى تمثل فى نقل التراث اليونانى العظيم إلى الحضارة الإسلامية الفتية، مشيرا إلى علماء الحضارة من أمثال الشيخ الرئيس " ابن سينا ".

ونعترف لهذا المؤرخ الكبير بالموضوعية والحيدة ، إذ يعترف أن الحضارة الغربية تشكر للحضارة الإسلامية حفاظها على تراث الإنسانية مما مكن "المدرسيين المسيحيين " من الاستفادة من هذا التراث وترجمة هذا التراث الإسلامى إلى اللغة اللاتينية لغة العلم فى العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث على نحو ما بينا فى الصفحات السابقة .

الفصل الثالث

علم النفس فى العصور الوسطى الأوروبية

إذا نظرنا إلي تاريخ علم النفس فى العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث نجد أن علم النفس كان جزءا لا يتجزأ من الفلسفة سواء فى الشرق الإسلامى أو الغرب الأوربى .

وإذا كان علم النفس فى التراث الإسلامى فى هذه العصور الوسطى قويا راسخا فإنا نجد هذا العلم ضعيفا خفيفا فى الغرب الأوربى، ورجالاته هم مجموع من المدرسيين أى الذين يدرسون الفلسفة اليونانية عامة والأرسطية خاصة فى المدارس والجامعات . ورغم ضعف علم النفس الأوربى فى العصور الوسطى إلا أنه يمثل حلقة فى سلسلة تطور علم النفس .

ونتحدث عن هؤلاء العلماء من خلال النقاط الآتية :

القديس أوغسطين (٣٥٤/ ٤٣٠م) Augustine of Hippo :

هو أشهر فلاسفة المسيحية فى العصور الوسطى، ويعتبر قمة شامخة فى الفكر الفلسفى والنفسى فى تلك العصور . وتدور محاولاته الفلسفية حول الربط بين الفلسفة اليونانية عامة وفلسفة « أفلاطون» و«أفلوطين » خاصة وبين الأفكار المسيحية .

ولد فى «تاغسطا» عام ٣٥٤ م (تعرف هذه المدينة الآن باسم سوق أهراس شرق الجزائر) كان السكان وثنيين، وكان أبوه وثنيا كذلك أما أمه فكانت مسيحية ذات أخلاق طيبة وفضائل جمة شديدة التأثير فى زوجها وابنها .

توقف عن التعليم وهو فى سن السادسة عشرة بسبب العوز المادى فعاش فى وسط من الشباب العابث وانغمس فى اللذات رغم نصائح أمه المزيزة على قلبه، ثم تابع التعليم وكان شغوفا بالقراءة لذا كان متفوقا على أقرانه .

وفى عام ٣٨٣ م نزح إلى «روما» ثم « ميلانو » ليتعلم الخطابة وفى عام ٣٧٨ م تم « تعميده » على يد القديس « إمبراوز » فى روما ثم عاد إلى « تاغسطا » ورسم كاهنا فى « هيبونا » (وهى مدينة عنابة فى الجزائر الآن قرب الحدود التونسية) وفى عام ٣٦٦ أصبح الأسقف فى تلك المدينة وبلغ مجدا رفيعا .

ثقافته تدور حول العلوم الدينية والفلسفية واللغوية ويقال أنه كان ضليعا فى اللغة اللاتينية لغة العلم فى ذلك العصر .

أهم مؤلفاته على الإطلاق هى « الاعترافات » التى سجل فيها أفكاره وسيرته الذاتية ورحلته من الشك إلى اليقين - ومن كتاب « الاعترافات » نستنتج أنه شاب متزن يميل إلى الهدوء،ولديه قدرة هائلة على الاستيعاب من جهة أخرى، كما يظهر من سيرته الذاتية أنه أصيب بأزمات صحية عديدة منها أوجاع فى المعدة وأخرى فى التنفس. ورغم ذلك فإنه كان عاكفا على طلب العلم ومثابرا فى ذلك أيما مثابرة .

وقد مر خلال تحوله من الوثنية إلى المسيحية بعدة مراحل نوجزها فيما يلى:

- المرحلة الأولى: البحث فى الكتاب المقدس وهو فى سن التاسعة عشرة ولكنه لم يجد فى الكتاب المقدس مبتغاه .

- المرحلة الثانية: بقى تحت تأثير مذهب المانوية Manicheism فى المدة بين ٣٧٣ إلى ٣٨٣ (والمانوية هى مذهب إثينى يقوم على أن الحياة تقوم على التقابل بين الضدين الضوء وهو الخير والظلام وهو الشر، وهذا الصراع بين الخير والشر، يحتدم أيما احتدام عند الإنسان حيث تمثل الروح الخير ويمثل الجسد الشر وأن الجسد هو الذى يجر الإنسان إلى الآثام والشرور) وكان تأثر «أوغسطين»

بالمانوية بسبب العقلانية إذ كان المانيون يعتمدون على براهين عقلية فى هجومهم على الكتاب المقدس، وخاصة فى القصص التى وردت فيه عن الأنبياء . (هذه نقطة خطيرة نظرا لأن قارئ العهد القديم من الكتاب المقدس أو التوراة يصدم بما هو منسوب فيها للأنبياء من آثام وفواحش مثل الزنا والزنا بالمحارم وشرب الخمر إلى غير ذلك من موبقات لا تستقيم مع صفات النبوة بحال) .

- المرحلة الثالثة : وهى تدور حول الشك فيما يحيط بنا من معارف حيث شعر « أوغسطين » أن الحقائق بعيدة المنال! ومع ذلك فإنه لم يشك فى وجود الله سبحانه وتعالى ولا ارتاب يوما فى الحقائق الرياضية مثل ٣ + ٥ = ٨.

- المرحلة الرابعة : التأثر بالأفلاطونية المحدثة (راجع كتابنا التراث النفسى عند علماء المسلمين لمزيد من المعلومات) وهذه الأفلاطونية المحدثة هى أفكار يونانية مطعمة بالتراث الشرقى. وقد استفاد من هذه الأفكار وإن كان قد عدل الكثير منها .

- المرحلة الخامسة : المسيحية حيث كانت خاتمة مطاف تجواله الفكرى وحيرته، وكأنه ألقى عصا الترحال بعد طول تجول ووجد فى المسيحية ضالته المنشودة (.. يرى المؤلف أن التسمية الدقيقة للمسيحية هى النصرانية وتلك التسمية بالنصرانية تستند إلى الآية الكريمة : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٥٢) أى أن أتباع عيسى عليه السلام هم أنصار الله أو النصارى .

نظريته فى النفس :

يمكن أن نلخص نظريته النفسية فى النقاط الآتية :

- يرى «أوغسطين» الرأى السائد فى العصور القديمة والوسطى وهو أن الإنسان مكون من نفس وبدن ولا يعيش إلا بهما معا .

- يؤكد على وحدة النفس وأنها جوهر عاقل صنع لكى يسوس بدنا .

- الإنسان هو نفس قبل كل شيء، والنفس تتميز عن البدن بأنها غير مادية لا طول لها ولا أبعاد بينما الجسد له طول وبعد ويحتل حيزا. والنفس على يقين بوجودها حتى فى حالة الشك. إن النفس حية وهى التى تمنح الحياة وتقوم بكل الوظائف فى البدن.

- يميل « أوغسطين » إلى القول بأن النفس خالدة بعد الموت أى أنها لا تفنى بفناء البدن والنفس خلقها الله من العدم صاعدة صوبه متجهة إليه ثم إنها مخلوقة قبل البدن. ولكن كيف تحل فى البدن؟ إنها تحل فى الأجسام ساعة أن تخلق هذه الأجسام.

- كيف تتصل النفس بالبدن ؟، تلك مشكلة. يحلها «أوغسطين» بالقول أن النفس و الجسم لا يؤلفان شخصين بل إنسانا واحدا، النفس هى الإنسان الباطن والجسم هوالإنسان الظاهر. دون أن تصير النفس جسما أو يصير الجسم نفسا، وليس محل النفس جزءا معينا من الجسم كالرأس أو القلب بل الجسم كله .

- الإدراك نوعان : الأول مدركات مادية ناشئة عن انتباه النفس للتغيرات الحادثة فى الجسم، هذه التغيرات جسمية بحتة يعقبها الإدراك وهو فعل النفس وحدها . والثانى مدركات معنوية مثل إدراك الله سبحانه وتعالى والنفس والملائكة، إنه إدراك نابع من النور الحقيقى الذى ينير لكل إنسان آت إلى هذا العالم، إنه إدراك إشراقى بكل معنى الكلمة .

- الإرادة الإنسانية حرة، فالإنسان قادر على قبول تصور ما أو رفضه، ودليل ذلك أن أوامر الله ونواهيه تكون لغوا إذا لم تكن مسئولين عن أفعالنا إذ لا تكليف ولا تبعة بغير حرية . إن الإنسان هو رب أفعاله لا يخضع لقدر أعمى ولا لتأثير النجوم كما يقول البعض، وإذا صدق المنجمون فما ذلك إلا من قبيل الصدفة لا غير. وقانون الإرادة الإنسانية هو اتباع الخير لأنه يطابق النظام الإلهى واجتناب الشر لأنه يعارض هذا النظام. وعلى ذلك فإن طاعة هذا النظام فضيلة تستحق الثواب ومخالفته رذيلة تستحق العقاب .

- الفضيلة الكبرى هى محبة الله، وهذه المحبة تتضمن الفضائل جميعا فهى تجمع بين الحكمة والفطنة والشجاعة والعدالة والسعادة، وهذه كلها وإن كانت فضائل دنيوية إلا أنها مؤدية إلى غاية أبعد منها وهى الحياة الآجلة بعد الموت .

- وهو فيلسوف مسيحى (أو بالأحرى نصرانى) مخلص، حيث يرى أن المسيحية (أو النصرانية) نجحت فى تعريف الناس بالأسلوب الذى يعيشون به الحياة، بينما فشلت فى ذلك المذاهب الفلسفية؛ ذلك أن الفكر الفلسفى لا يؤدى إلى سكينة النفس وهدوئها ولكن هذه السكينة وهذا الهدوء إنما يحققهما الإيمان الدينى. ومعنى هذا أن فلسفته تسودها المسحة الدينية .

- مهمة العقل فى نظره هى قبول الحقائق التى أتى بها الدين وأن الإنسان بدون معونة الله سبحانه وتعالى غير قادر على معرفة الحقائق .

- فلسفته تقوم على التفاؤل، حيث يرى أن مثال الخير وصورته هو أرقى الأمثلة وأحسن الصور . وهذا الخير هو بمثابة الضوء الذى ينير الحياة فنبصر من حولنا .

- أهم ركن فى نظريته النفس هو ما يسمى « مثلث أوغسطين النفسى Psy-chological Triad»، وهذا المثلث يتكون من ثلاثة أضلاع: الذاكرة والفهم والإرادة، ورغم أن «أوغسطين» لم يؤلف كتابا فى علم النفس إلا أن « اعترافاته » حافلة بالتأملات والتحليلات النفسية والوصف الدقيق لمحتويات الشعور، وخاصة عندما يتحدث عن الانتقال من الشك إلى اليقين وما يصاحب ذلك من استبصار عميق . وقد عبر « أوغسطين » باقتدار ووصف نفسى أخاذ عن ذكرياته وانفعالاته ومشاعره ورغباته .

- يذكر أن « أوغسطين » كان قديرا على مخاطبة جماهير المستمعين إليه؛ وذلك راجع إلى قدرته الفائقة على سبر أغوار النفس البشرية التى مكنته من مخاطبة الناس على قدر أفهامهم . وكانت مواعظه الدينية جذابة خلابة وتلبى حاجات المستويات الفكرية والعقلية المختلفة للنظارة الذين يستمعون إلى عظاته.

ويذكر كذلك أن « أوغسطين » يحتل مكانة ممتازة فى تاريخ علم النفس الوسيط لأنه كان ضليعا فى فهم أعماق النفس الإنسانية وما تزخر به هذه النفس من اختلاجات وانفعالات بحيث يعد من علماء النفس المذكورين .

بيتر أبلارد (١٠٧٩ / ١١٤٢م) Peter Abelard :

فرنسى - هو فيلسوف ورجل دين وهو من المدرسيين الذين اهتموا بالمزج بين الفلسفة اليونانية (الأرسطية خاصة) وبين الدين المسيحى ويقال أنه كان خطيبا لسنا خلب ألباب الجماهير وجذب جموعا غفيرة من طلاب العلم .

وهو مشهور بقصته مع فتاة تدعى « هلويز Heloise » (١١٠١ - ١١٦٤ م) كانت بينهما علاقة حب وتزوجا فى السر وأثمر الزواج طفلا - ثم أعلن «أبلارد» عن هذا الزواج وأقنع «هلويز» بالانخراط فى سلك الرهبنة . ويقال أن خطابات عاطفية متبادلة بينهما نشرت بعد وفاتهما بمئات السنين (الخطابات نشرت عام ١٦١٦ م) .

نظريته فى النفس :

ويمكن تلخيص نظريته فى النفس فى النقاط الآتية :

- أن خطايا البشر هى نتيجة عصيان الوصايا الربانية كما أنه يرى أن النية الصالحة هى الأساس فى السلوك بل هى أهم من العمل الصالح نفسه .

- يؤكد على مسئولية الإنسان، بمعنى أن الإنسان مخير لا مسير، وهذا أدى إلى صدامه مع السلطات الكنسية لأنه يغالى فى تصوره عن الإرادة الحرة .

- له كتاب بعنوان « اعرف نفسك » وهو حوار بين فيلسوف ومسيحى يرمى إلى استكشاف الأخلاق المسيحية بالعقل، ويعتبر أن الوصايا الأخلاقية ما هى إلا مجرد إصلاح للأخلاق الطبيعية. ويرجع المسألة الخلقية إلى ضمير الإنسان وبيئته، ويترتب على ذلك أن الخطيئة شخصية أى أن الإنسان مسئول عن أفعاله، وأنه لا محل لخطيئة أصلية موروثة عن أبينا آدم، وأن الخلاص أمر شخصى وأن

استحقاقات المسيح لا تعود علينا مما كان سببا لاتهامه بالزيغ عن الدين. ومع ذلك يؤكد على أن الإنسان عليه أن يحسن توظيف عقله وتحكيمه لأن هذا العقل منة إلهية عظيمة .

موسى بن ميمون (١١٣٥/ ١٢٠٤ م) Maimodes (Moses Ben Maimon):

هو أبو عمران موسى بن ميمون، ويطلق عليه بعض مؤرخى الفكر « موسى المصرى » ولد فى ١١٣٥ م فى مدينة قرطبة من حواضر الأندلس فى العصور الوسطى. وكان أبوه « موسى بن يوسف» سليل أسرة عريقة من علماء الدين ترجع إلى كاتب « المشنا » « يهوذا هاناسى » بل إلى الملك داود أو بالأحرى النبى داود عليه السلام - وكان أبوه عالما تلموديا (لمعلومات عن المشنا والتلمود راجع المداخلة). وعلى أثر غزو الموحدين قرطبة فى ١١٤٨ م تركت أسرة ابن ميمون المدينة وتجولت لمدة ثمانى أو تسع سنوات فى مدن الأندلس، ثم تركوا الأندلس واستقروا فى فاس عام ١١٦٠ م ثم استقرت الأسرة بعد ذلك فى مصر عام ١١٦٥ م حيث كان اليهود ينعمون فيها بحرية كبيرة لم ينعموا بها فى تاريخهم الاضطهادى الطويل، وقد درس أثناء وجوده بالأندلس العديد من العلوم وعلى رأسها الفلسفة والطب.

وفى مصر المحروسة وفى عصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى الذى تولى الحكم فى ١١٧١م أصبح « موسى بن ميمون » أحد كبار مستشاريه وعظمت سلطة « ابن ميمون » على تجمعات اليهود فى العالم أجمع ولكنها كانت أقوى ما تكون على يهود مصر ،وفى عام ١١٧٥م أصبح حاخام القاهرة كما أصبح طبيبا فى بلاط صلاح الدين!

ومن أطرف ما يقال فى سيرة « ابن ميمون » أنه اعتنق الإسلام أثناء وجوده فى الأندلس مكرها بسبب تعصب الموحدين الذى قاموا بغزو قرطبة وأكرهوا غير المسلمين على الدخول فى الإسلام (الأصل أنه لا إكراه فى الدين وإن صح ذلك عن الموحدين فهو سلوك لا يمت إلى الإسلام بصلة). ثم ارتد « ابن ميمون » عن

الإسلام بعد مغادرته الأندلس . وفى عام ١١٨٧ م وجه إليه بعض حساده تهمة الردة عن الإسلام، ولكن « الفاضل » وزير الناصر « صلاح الدين » تصدى لهؤلاء الحساد ودافع عن « ابن ميمون » على أساس أن العقيدة التى تفرض بالقوة ليست صحيحة والارتداد عنها لا يعد ردة بالمعنى الصحيح، بل إن هذا الوزير «الفاضل» - بل الفاضل حقا - هو الذى عينه رئيسا لكل التجمعات اليهودية فى مصر، وقد توارث أبناؤه هذه الوظيفة الشرفية من بعده حتى القرن الرابع عشر الميلادى .

وبعد هذه الحياة الحافلة توفى فى عام ١٢٠٤ وحملت جثته إلى «طبرية» بفلسطين حيث دفن فى قبور أولياء بنى إسرائيل .

وله مؤلفات عديدة تتناول مجالات اللاهوت اليهودى والفلسفة، ولكن أعظم مؤلفاته وأهمها على الإطلاق هو « دلائل الحائرين » الذى صدر عام ١١٩٠ م .

ويعتبر كتاب « دلائل الحائرين » ذروة التفكير الفلسفى واليهودى فى العصور الوسطى - ويهدف الكتاب إلى عرض أفكار « ابن ميمون » فى التوفيق بين الفلسفة والدين .

ويقع هذا الكتاب المهم فى ثلاثة أجزاء :

يبحث الجزء الأول فى ماهية الله وكيفية إدراكه وتعريفه وتوحيده كما يبحث فى الكتاب المقدس عن طريق العقل والمنطق .

يبحث الجزء الثانى فى إثبات وجود الله وبراهين ذلك، وكذلك يتحدث هذا الجزء عن حركة الأفلاك وماهية الملائكة وفى حقيقة النبوة وماهيتها .

يبحث الجزء الثالث فى أمور الإنسان وصلاح نفسه وبدنه ويعرض المعاناة التى لقيها « ابن ميمون » فى محاولته التوفيق بين الفلسفة والدين .

نظريته فى النفس :

يمكن أن نلخص هذه النظرية فى النقاط الآتية :

- النفس عنده هى التى تحرك الإنسان وهى صورته كما أنها واحدة وإن تعددت وظائفها، وبعض هذه الوظائف تسمى نفوسا ولذلك يتوهم الكثيرون أن هناك العديد من النفوس .

- النفس لها عدة وظائف برغم أنها واحدة - وهى القوة الغاذية والقوة الحساسة والقوة المتخيلة والقوة الشهوانية والقوة العاقلة. وهذه القوة العاقلة هى الصورة الحقيقية للإنسان .

- عملية الإدراك تتم عن طريق نشاط العقل المنفعل بما يأتيه من القوة الحساسة ويساعد العقل الفعال العقل المنفعل على هذا الاستقبال وهذا العقل الفعال هو عقل خارج الإنسان وكأنه نوع من المعونة الإلهية تعين العقل المنفعل وترشده وتهديه .

- ومما يتصل بموضوع الإدراك والمعرفة موضوع النبوة (ناقشنا موضوع النبوة بتوسع وإفاضة فى كتابنا التراث النفسى عند علماء المسلمين فالتمس ذلك ثمة إن شئت) وقد جاءت نظرية النبوة عند « ابن ميمون » متأثرة بآراء الإسلاميين إلى حد كبير حيث يرى أن النبى نظرا لطبيعته الروحية والجسمانية أكثر الناس قابلية لاستقبال الفيض المستمر الآتى من العقل الفعال (يرى المؤلف أن أدق تمثيل للعقل الفعال هو الروح الأمين أو جبريل ملك الوحى) .

- الوحى أمر ثابت لا شك فيه، ولكل فرد استعداد لاستقباله، إن النبوة هى فيض من الله سبحانه وتعالى بواسطة العقل الفعال، وهناك نوعان من الفيض . فيض من الله سبحانه وتعالى على القدرة العقلية وحدها ومن هذا الفيض تخلق طبقة العلماء المتأملين . وفيض من الله سبحانه وتعالى على القدرة الخيالية ومن هذا الفيض تخلق طبقة رجال الدولة والمكشوف عنهم حجاب الغيب (كذا) أما النبى فإن الفيض بالنسبة له يكون على القدرتين معا على القدرة العقلية وعلى القدرة الخيالية .

مداخلة:

المشنا : موسوعة التشريعات العبرية، وقوانين مستمدة من التوراة. وجامع المشنا هو « يهودا هناسى » الجد الأكبر « لموسى بن ميمون » والمشنا بمعنى المثنى أو المكرر أى أنها تكرار وتسجيل للشريعة .

التلمود : هو تفسير وتبسيط للمشنا – ولا تقل أهمية التلمود لدى معظم اليهود عن أهمية العهد القديم نفسه ، بل تزيد لدى بعض فرقهم عن أهمية العهد القديم .

العهد القديم : ويشتمل العهد القديم على تسعة وثلاثين سفرا، والعهد يراد به الميثاق والعهد القديم يمثل الأسفار المقدسة التى ترتبط بالديانة الموسوية ، أما العهد الجديد أو الأناجيل فهو يرتبط بالديانة المسيحية (النصرانية) وتنقسم أسفار العهد القديم إلى أربعة أقسام :

الأول : كتب موسى عليه السلام وهى أسفار خمسة (التكوين – الخروج – اللاويين – العدد – التثنية) والثانى الأسفار التاريخية وهى اثنا عشر سفرا تعرض لتاريخ بنى إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين وبعد استقرارهم فى فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم والحوادث البارزة فى شئونهم، وهى أسفار («يوشع» والقضاة وراعوث وصموئيل الأول والثانى والملوك الأول والثانى وأخبار الأيام الأول والثانى وعزرا ونحميا وإستير) والثالث أسفار الأناشيد وعددها خمسة أسفار وهى (أيوب ومزامير داود وأمثال سليمان والجامعة من كلام سليمان ونشيد الإنشاد لسليمان) والقسم الرابع : يسمى أسفار الأنبياء يعرض كل منها لتاريخ نبى من الأنبياء الذين أرسلوا بعد موسى وهارون عليهما السلام وعدد أسفاره سبعة عشر وهى أسفار (أشعياء، أرمياء، مراثى أرمياء ، حزقيال ، دانيال ، هوشع ، يوئيل ، عاموس ، عوبديا ، يونس، ناحوم ، حبقوق، صفنيا ، حجى ، زكريا ، ملاخى) .

حاشية : كتاب عن ابن ميمون

إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) هو أستاذ اللغات السامية بكلية دار العلوم فى مصر فى الثلاثينيات من القرن العشرين، والذى أصدر كتابا بعنوان « موسى بن ميمون حياته ومصنفاته » عام ١٩٣٦ ونشرته مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. وإلى هنا والأمر عادى أما ما يثير العجب والإعجاب حقا فهو السماحة التى كان يتمتع بها اليهود فى ذلك الوقت إذ إن الذى قدم لهذا الكتاب هو العالم الجليل الشيخ مصطفى عبد

الرازق الأستاذ بالجامعة المصرية ، وهو شخصية كارزمية تتمتع بعظيم الحب والاحترام في مصر والعالم الإسلامي - لاحظ التواصل العلمي بين أحد رموز الإسلام وبين أستاذ يهودي، ولاحظ كذلك التعايش السلمي والبعد عن التعصب المقيت مما يدل على أن مصر المحروسة - وغيرها من البلاد الإسلامية كانت تعامل اليهود المقيمين بها أطيب معاملة وكانوا جزءا لا يتجزأ من المجتمع المصري .

بل إن رئيس الطائفة الإسرائيلية في الهزيع الأول من القرن العشرين صاحب المعالي يوسف قطاوي باشا شغل وزير المالية في مصر ! (توفي يوسف قطاوي باشا في عام ١٩٢٤) .

ومن أسرة قطاوي كذلك جوزيف أصلان قطاوي الذي تولى منصب رئيس الطائفة الإسرائيلية في مصر بعد وفاة «قطاوي الكبير». بل إن جوزيف أصلان قطاوي كان عضوا بارزا في حزب الوفد المصري ورأسماليا كبيرا بل كان عضوا في البرلمان المصري عام ١٩٢٢ عن دائرة « كوم أمبو» وهي معقل عائلة قطاوي . وهذا اليهودي المصري كان دائما ما يعلن بسبب احتضان مصر له أنه يهودي الديانة مصري الهوية - وكان يعارض بشدة فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين !! وقد توفي عام ١٩٤٣ .

ألبرت الكبير (١٢٠٠/ ١٢٨٠) Albert the Great :

ألماني - ولد في «باڤاريا»، اهتم بدراسة اللاهوت في المدة من ١٢٢٨ إلى ١٢٤٠م في العديد من أديرة ألمانيا ثم ذهب إلى باريس منارة الفكر أوربا المسيحية منذ عام ١٢٤٠ ليتابع دراسة اللاهوت في جامعتها. وأتم هذه الدراسة عام ١٢٤٢م وأصبح عضوا في هيئة التدريس بكلية اللاهوت بجامعة باريس في نفس العام، واستمر في منصبه في الفترة من ١٢٤٢ إلى ١٢٤٨ م . وكان يعتمد في تدريسه على كتب « أرسطو » (كانت دراسة هذه الكتب أمرا ممنوعا في ذلك الوقت) وكان إقدامه على الاعتماد عليها في تدريسه عملا شجاعا أكسبه نجاحا عظيما وشهرة كبيرة .

وعاد إلى « كولونيا » بعد ذلك في العام ١٢٤٩ م ليؤسس بها مركزا دراسيا للإخوة الدومنيكان واستغرق في هذه المهمة من عام ١٢٤٨ إلى عام ١٢٥٤ م. واشتغل بالتدريس

فى « كولونيا » فيما بين ١٢٥٧ إلى ١٢٦٠ م - وظل حتى وفاته مثابرا على التدريس والتأليف (الإخوة الدومنيكان هى جماعة دينية مسيحية أسسها القديس دومينيك الأسبانى الذى عاش بين ١١٧٠-١٢٢١ م وهذه الجماعة تهتم بالوعظ والتربية الدينية) .

له العديد من المؤلفات، وهى شروح على كتابات «أرسطو » والذى يهمنا منها هو شروحه على موضوعات النفس والحس والمحسوس والذكر والتذكر والنوم واليقظة والأخلاق، وهى موضوعات علم النفس التقليدى فى العصر القديم والعصر الوسيط.

نظريته فى النفس :

يمكن تلخيص هذه النظرية فى النقاط الآتية :

- النفس جوهر واحد أى قوة عامة واحدة وإن كانت ذات قوى عديدة فهى مبدأ للحياة النباتية والحسية والعقلية على السواء. وهى متحدة بالجسم وهى صورة له ولكنها كذلك مختلفة عن الجسم لأنها تستطيع إدراك الكليات أو المفاهيم المجردة (مثل مفهوم الخير أو الشر) . يرفض « ألبرت الكبير » فكرة العقل الفعال التى تنسب إلى «أرسطو » وأخذ بها بعض فلاسفة الإسلام، وهو عقل خارج الإنسان ومفارق له يمكن العقل الهيولانى الذى هو مجرد استعداد للمعرفة من التحول إلى عقل بالفعل يعرف ويدرك ويفكر.

- يأخذ « ألبرت الكبير » بالتعريف الأرسطى والسينوى للنفس على أساس أنها صورة البدن كما أنه يرى أن النفس خالدة بعد الموت .

- ربط بين أجزاء المخ والوظائف النفسية المختلفة - شأن فلاسفة الإسلام - فمثلا افترض أن الشعور يقع فى التجويف الأمامى فى المخ وأن الذاكرة تقع فى التجويف الخلفى .

- المعرفة هى عملية تجريد سواء كانت هذه المعرفة حسية أو عقلية، والتجريد العقلى أرقى من التجريد الحسى ؛ لأن التجريد الحسى انفعال بالمحسوس واستقبال له، أما التجريد العقلى فهو استخلاص خصائص هذا المحسوس .

- جميع المعارف مستمدة من الإحساس ما خلا المبادئ الأولية مثل مبدأ عدم التناقض فهى معان نظرية فى النفس .

وفى ختام الحديث عن البرت الكبير » نذكر أنه واحد من فلاسفة العصور الوسطى الذين تتلمذوا على شرح « ابن رشد »، و لكنه مع ذلك هاجم ابن رشد هجوما ساحقا وذلك فى كتاب له بعنوان « فى وحدة العقل ضد ابن رشد » صدر له عام ١٢٥٦م. و لا يهمنا فى هذا المقام الخلاف الفلسفى ولكن أثبتنا هذه المعلومة لبيان أثر « ابن رشد » خاصة وفلاسفة الإسلام عامة على الفكر الأوروبى فى العصر الحديث. وكان «البرت الكبير » يتصور - وهو فى ذلك واهم - أن « ابن رشد » مفكر يحارب الأديان، ومن هنا كان هجومه عليه، كما هاجمه كذلك « تلميذه » « توما الإكوينى » .

توما الأكوينى (١٢٥٥ / ١٢٧٤ م) St Tomas Aquinas :

هو فيلوسف ورجل دين إيطالى مسيحى ولد فى مدينة « روكاسيكا» جنوب إيطاليا بالقرب من مدينة « نابولى »، انضم إلى الإخوة « الدومنيكان » . وقد درس «توما الأكوينى» فى جامعة « نابولى » فى المدة بين ١٢٣٩ إلى ١٢٤٣م . وكان انضمامه إلى الإخوة الدومنيكان عام ١٢٤٤ وهو ما عارضته أسرته معارضة شديدة بحيث اضطر إخوته إلى حبسه فى برج قلعة تابعة للأسرة ! ويقال أن مدة الحبس طالت إلى سنتين ولكنه استطاع الهرب حيث ذهب إلى كولونيا فى ألمانيا وتتلمذ على يد « ألبرت الكبير » (عرضنا له سابقا) فى المدة من ١٢٤٨ إلى ١٢٥٢م ثم ذهب فى نفس العام ١٢٥٢ م إلى «باريس » حيث استكمل دراسته اللاهوتية .

وفى فترة نضجه العلمى والدينى عمل محاضرا فى جامعة باريس فى المدة بين ١٢٥٤ إلى ١٢٥٩ م ثم انتقل فى العام ١٢٥٩ إلى إيطاليا وبقى فيها إلى العام ١٢٦٩م متقلدا ا لعديد من الوظائف الدينية والعلمية. ثم عاد إلى «باريس» وبقى فيها من ١٢٦٩ إلى ١٢٧١م أستاذا ضليعا فى العلوم الفلسفية والدينية. ثم عاد إلى جامعته الأم « نابولى » عام ١٢٧٢ م حيث أسس مركزا عاما لطائفة « الدومينكان» وقام بالتدريس فيه بين عامى ١٢٧٢ و ١٢٧٣ م، وفى عام ١٢٧٤ م استدعاه البابا

« جريجوار العاشر » إلى مدينة «ليون» وأثناء سفره مرض وتوفى فى ٧ مارس ١٢٧٤م ودفن فى «فاسا نوفا» وهى مكان بين «نابولى» «وروما» .

ويبدو أن حياته العلمية والشخصية حافلة بالتنقل والحِل والترحال . ولكن الذى يهمنا فيها أنه أثناء دراسته فى «نابولى» و«باريس» قرأ أعمال « أرسطو » وشروح « ابن رشد » عليها . ويعتبر «توما الأكوينى » مثالا على الفلاسفة المدرسيين (والفلسفة المدرسية Scholasticism هى فلسفة المدارس والجامعات فى القرون الوسطى الأوروبية وبدأت فى القرن العاشر الميلادى وامتدت إلى القرن السادس عشر . و قامت هذه الفلسفة المدرسية على التوفيق بين تعاليم المسيحية وبين الفلسفة الأرسطية ومعظم الفلاسفة الذين نتعرض لهم فى هذا المقام من المدرسيين) .

وأهم مؤلفات « توما الإكوينى » التى تهمنا فى مجال علم النفس هى شروحه على المؤلفات الأرسطية مثل الحس والمحسوس والذكر والتذكر والسياسة والأخلاق. وقد دعاه إلى إعداد هذه الشروح أن شروح « البرت الكبير» لا تطابق النص الأرسطى تماما .. أما شروح «ابن رشد» فقد ادعى « توما الإكوين» أنها تمثل خطرا على المسيحية !

وكانت المهمة المهمة للقديس « توما الإكوينى » هى المزاوجة بين علم النفس الأرسطى والديانة المسيحية وقد اعتقد أن الإيمان والعقل كل منهما يؤدى إلى نفس النتيجة متأثرا فى ذلك بالشارح الأكبر بالطبع . وقد أكد العديد من الثقات من علماء الاستشراق أن «توما الإكوينى » هو تلميذ بل وعالة على «ابن رشد» فى شروحه على أرسطو، ولكن من الغريب – مع ذلك – أن « توما الإكوينى » كان خصما لدودا للشارح الأكبر .

ومن طريف ما يذكر فى هذا المقام أنه فى باريس حاضرة الثقافة الأوربية فى العصر الوسيط كان ثمة معهدان علميان يتنافسان: الأول جامعة « السوربون » تناهض « ابن رشد » وتناصر « توما الإكوينى »، والثانى جامعة « باريس » تناهض

«توما الإكوينى» وتناصر « ابن رشد » بحيث يمكن القول أن طلاب العلم فى ذلك الوقت انقسموا إلى قسمين: رشديين، ولا رشديين .

وكذلك من طريف ما يذكر فى هذا المقام أن بعض مفكرى العصور الوسطى فى أوروبا تصوروا أن الشارح الأكبر « ابن رشد » هو مفكر يحارب الأديان!! وأول الأدلة على ذلك أنه توجد صورة فى كنيسة القديسة «كاترين» فى إحدى مدن إيطاليا وهى مدينة « بيزة » صورة من رسم أحد الرسامين المشهورين آنذاك واسمه « ترينى » يظهر فيها «توما الإكوينى » كقديس صالح حوله أشعة ساطعة ومن بين هذه الأشعة الساطعة شعاع يصعق « ابن رشد » وغيره من الفلاسفة، ويقال أن هذا الرسم « الغريب » يرجع تاريخه إلى عام ١٤٣٠ على الأرجح .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن توما الإكوينى تتلمذ على أعمال « ابن رشد» ثم هاجمه هجوما ساحقا .. ماذا نقول: لقد شرب من مائه ثم أنكر إناءه !

نظريته فى النفس :

أسهبنا كثيرا فى الحديث عن حياة « توما الإكوينى » والجو العلمى و الفكرى الذى نشأ فيه، وعذرا لهذا الاستطراد لأن ذلك مما يقتضيه سياق هذا الموضوع، ونوجز نظريته فى علم النفس فى النقاط الآتية :

- النفس الإنسانية حالة فى الجسم من ناحية مفارقة ومغايرة له من ناحية أخرى .

- النفس الإنسانية فعلها التعقل وهو لا يتم بآلة جسدية (لاحظ الأخطاء فى المعلومات الفسيولوجية عند توما الإكوينى من حيث عدم الإلمام بوظائف المخ خلافا لفلاسفة الإسلام) وهو يرى أنه من المستحيل أن نتعقل بآلة جسدية!

- النفس الإنسانية العاقلة إلى جانبها قوتان هما النفس الحساسة والنفس الغاذية .

- النفس هى الصورة الجوهرية للإنسان، والجسم هو المادة التى تتحد بها النفس، فالنفس إذن هى صورة البدن.

لمزيد من توضيح نظرية «توما الإكوينى » فى النفس نقول أن النفس عنده ليست مفارقة تماما للمادة أى الجسم، بل هى صورة الجسم؛ ولذا فإن النفس الإنسانية تختلف عن «الجوهر الملائكى » . ورغم أن « توما الإكوينى » يرى أنه من المستحيل أن نتعقل بآلة جسدية إلا أن النفس الإنسانية تحتاج فى تعقلها أى عملها الخاص إلى الجسم (هنا إشكالية سيحاول «توما الإكوينى» التخلص منها)

- الجسد ليس شرا فى حد ذاته كما أنه ليس سجنا للنفس بل هو خادم لها وأداة أوجدها الله سبحانه وتعالى لخدمة الإنسان. إن اتحاد النفس بالجسد ليس عقابا لها بل هو وسيلة تحقق النفس من خلالها كمالها، بمعنى أن اتحاد النفس بالجسد لا يكون على حساب النفس بل هو من أجل مصلحتها. والنفس الإنسانية هى أدنى درجة من الملائكة .

- أما خلود النفس فهو كمسيحى مؤمن وكفيلسوف توفيقى بين الفلسفة والدين يؤمن بأنها خالدة رغم أنها حالة بالبدن وهذا الحلول معناه استحالة بقاء النفس مستقلة عن البدن . وهو يحل هذه الإشكالية - الصعبة حقا - بأن يقول أن البعث هو بعث بالأرواح والأجساد معا - فالنفس الإنسانية هى صورة الجسد الحى وعند الوفاة تترك النفس الجسد، وهى عند البعث تتحد بالجسد مرة أخرى فالذى سيبعث هو ذات الجسد وذات النفس .

ومن الواضح تأثر « توما الإكوينى » بالمعلم الأول « أرسطو » فى قوله أن النفس الإنسانية هى صورة الجسم، ولكن « توما الإكوينى » شأنه فى ذلك شأن فلاسفة الإسلام يأخذ برأى « أفلاطون » فى أن النفس جوهر عاقل قائم بذاته خالد لا يصير إلى الفناء .

- ما غاية الحياة الإنسانية ؟ وما السعادة ؟ إن هذه الغاية وتلك السعادة إنما هى فى معاينة الله سبحانه وتعالى وهى لا تتحقق إلا فى الحياة الآجلة أما فى

الحياة العاجلة فإن السعادة الميسورة لنا سعادة ناقصة تقوم أولا بمعرفة الله ومحبته وثانيا بمزاولة الفضائل وأخيرا بصحة الجسم وبالخيرات الخارجية - وهذه الخيرات الخارجية مثل المال والقوة والكرامة تستخدم كوسائل للحياة الفاضلة ذلك أن الفاقة والسقم قد يعوقان عن أعمال فاضلة كثيرة .

- إن الانفعالات النفسية كالغضب والفرح حركات للنزوع الحسى . وهى ليست خيرا أو شرا بالذات - ولكن هذه الانفعالات إذا خضعت للعقل كانت خيرة فالغضب للحق خير والغضب لمنفعة شخصية شر والإنسان عليه أن يتبع الخير ويتجنب الشر، بمعنى أن الخير مندوب إليه والشر مهروب منه .

سجر البرابنتى (١٢٤٠ - ١٢٨٤ م) Siger of Barabant :

فرنسى - لا يعرف تاريخ مولده بالضبط، ويقال أنه ولد عام ١٢٣٥ م ولكن المرجح أكثر أنه ولد عام ١٢٤٠ م. وهو زعيم حركة الرشدية اللاتينية التى أثرت على الحركة الثقافية والفكرية بجامعة باريس لمدة ربع قرن ! وهؤلاء الرشديون كانوا يعولون بالأكثر على شروح « ابن رشد » ويعتبرونها المرآة الصافية لفكر « أرسطو »

أشهر هؤلاء الرشديين هو « سجر البرابنتى» الذى شغل منصب التدريس فى كلية الآداب جامعة باريس، وفى تدريسه كان « أرسطيا » جريئا لا يبالى باللاهوت المسيحى (لاحظ أيها القارئ الكريم أن «أرسطو» يعتبر فيلسوفا ملحدا) . ويقال أنه بدأ تدريسه بجامعة باريس منذ عام ١٢٦٥ م وكانت حياته بهذه الجامعة سلسلة من الاضطرابات حيث أنكر أسقف باريس القضايا « الرشدية » عام ١٢٧٠ م، ولكن «سجر» لم يستجب لذلك واستمر فى تدريس « الأرسطية الرشدية » . وفى عام ١٢٧٧ م صدر حكم بابوى بتجريمه بسبب أفكاره الجريئة التى كان يضمنها محاضراته. وقد قتل على يد كاتبه الذى أصابه الجنون كما يقال ! أهم أعماله هى شروح على بعض كتابات « أرسطو » وخاصة كتاب النفس، ويذكر كذلك أن « توما الإكوينى » هاجمه هجوما ساحقا بسبب آرائه الجريئة .

نظريته فى النفس :

يمكن تلخيص نظريته فى النفس فى النقاط الآتية :

يفرق بين النفس العاقلة من جهة والنفس الحساسة النباتية من جهة أخرى وهاتان النفسان تتحدان لتكونا نفسا واحدة كأن النفس ذات طبيعة مركبة .

- النفس خالدة ورغم أنها متحدة بالبدن إلا أنها لا تفنى بفنائه .

- تتكون النفس من عقل فعال وعقل منفعل والعقل المنفعل هو المتأثر بما حوله من محسوسات أما العقل الفعال فهو الذى يمنح العقل المنفعل القدرة على التأثر والإحساس بما حوله .

- يشير « سجر » إلى موضوع الصور الخيالية وهى صور شخصية يكونها العقل المنفعل عما حولنا من مدركات .

ومن الواضح أن نظرية « سجر » فى النفس مشتقة من النظرية الأرسطية والنظرية الرشدية، وإن كان قد حور بعض نقاط النظرية الأرسطية - مثل خلود النفس - حتى لا يتهم بالإلحاد والهرطقة . (ذلك لم ينجه من التهمة كما سبق أن أشرنا أثناء الحديث عن أحداث حياته) .

جان دنس سكوت (١٢٦٥/ ١٣٠٨ م) Jahn Duns Scotus :

إنجليزى - ولد فى إسكتلندا التحق بالسلك الكهنوتى، وفى عام ١٢٩١ م رسم كاهنا على « نورثجتون» فى المدة بين ١٢٩٢ إلى ١٢٩٧ م، استقر فى «باريس» ولكنه عاد إلى إنجلترا عام ١٢٩٧م ليقوم بتدريس اللاهوت فى « إكسفورد » و « كمبردج ». ثم عاد إلى باريس عام ١٣٠٢ م وفى عام ١٣٠٧م سافر إلى «كولونيا» وبقى فيها حتى وفاته .

له العديد من المؤلفات التى تربط بين الفلسفة واللاهوت، ويسمى عند مؤلفى الفلسفة « المعلم المرهف » أو « الحكيم المرهف » ويذكر أنه اطلع على

مؤلفات أرسطو وعلى مؤلفات « ابن سينا » الذى كان يفضله على « ابن رشد »، ويذكر كذلك أنه كان لا يوافق على آراء « أرسطو » وعلى آراء « توما الإكوينى » .

نظريته فى النفس :

ونلخص نظريته فى النفس فى النقاط الآتية :

- يؤكد فى نظريته فى المعرفة على أنه إلى جانب المعرفة التجريدية هناك كذلك المعرفة الحدسية، ومن خلال هذه المعرفة الحدسية يستطيع الإنسان أن يصل إلى اليقين وعلى هذا فإن الإنسان بهذه المعرفة الحدسية يستطيع معرفة الله معرفة يقينية إيجابية .

- يرى أن الله محبة وكون الإنسان أحد مخلوقات الله هو تمجيد لهذا الإنسان ورفعة لشأنه .

- أكد على أهمية الإرادة عند الإنسان بحيث أطلق بعض مؤرخى علم النفس على مذهبه « الإرادية Voluntarism » .

وليام الأوكهامى (١٢٨٥ / ١٣٤٩) William of Okham :

إنجليزى - ولد فى مدينة «أوكهام» ، وهى بلدة صغيرة قرب «لندن» درس فى «إكسفورد» ولكنه لم يكمل دراسته لسبب آرائه المثيرة للجدل، ويسمى عند مؤرخى علم النفس « الشيخ الجليل Venerable inceptor » له صدامات مع السلطات الكنسية بسبب آرائه الجريئة التى ضمنها كتاباته فى الفلسفة واللاهوت .

نظريته فى النفس :

يمكن تلخيص نظريته فى النفس فى النقاط الآتية :

- إن المبدأ الأسمى الذى يحكم وجهة نظره هو مبدأ القدرة الإلهية المطلقة . هذه القدرة الإلهية المطلقة أفعالها تامة لا ينالها تناقض ولا يلحقها نقص، وهذا الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة ليس فتحا قام به العقل بل هو حدس إيمانى مباشر. والمعرفة

المؤكدة هى المعرفة الحدسية . وبهذه المعرفة الحدسية ندرك الأمور المحسوسة والأمور العقلية والمعانى الراقية . إلا أن أعلى مراتب المعرفة ، هى المعرفة عن طريق الوحى والتى بها - وبها فقط - ندرك أن لنا نفوسا روحية خالدة - ثم إن الإرادة الإلهية هى التى تحدد لنا ما الخير وما الشر، الخير مندوب إليه والشر مهروب منه !

اشتهر عند مؤرخى علم النفس بما يسمى « قانون أوكهام لحد السيف OK- ham's razor» وهذا القانون مؤداه أنه إذا طرح حلان لمشكلة معينة وكان كل من الحلين صحيحا ومقبولا فإن الحل الأكثر بساطة هو الأكثر ملاءمة والأكثر قبولا . ويقال أن « لويد مورجان » (سنعرض له عند الحديث عن المدرسة السلوكية) قام بإحياء قانون «أوكهام » واشتق منه قانون الاقتصاد أو التوفير Low or Parsimony والذى به يفسر سلوك الكائن الحى بأبسط التفسيرات الممكنة .

★ ★ ★

الفصل الرابع
علم النفس الفلسفى

إذا نظرنا إلى تاريخ علم النفس منذ القرن السابع عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، نجد أنه كان خلال تلك الفترة جزءا من الفلسفة ، إذ جلس الفلاسفة على كراسى علماء النفس ، فتاريخ علم النفس فى هذه الحقبة - شأنه فى العصور القديمة والوسطى - هو جزء من تاريخ الفلسفة .

وثمة مبحث أساسى من مباحث الفلسفة ، وهو مبحث المعرفة ، والذى أدى إلى الالتصاق الدائم بين علم النفس والأم الكبرى الفلسفة ، لأن مبحث المعرفة فى الفلسفة يدرس موضوعات هى من صميم علم النفس - سواء علم النفس القديم أم الحديث - مثل العمليات الحسية والعمليات الإدراكية والعمليات العقلية والمعرفية وتكوين المفاهيم الكلية ، فهى موضوعات ذات أرضية مشتركة درسها الفلاسفة من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر . فكانوا فلاسفة وعلماء نفس ، ولكن ما إن انتهى القرن التاسع عشر وبدأ القرن العشرون حتى استقل علم النفس عن الأم الرؤوم متخذاً أساليب تجريبية وإحصائية ، متخليا عن التفكير الأرائكى ، مكونا فرعا جديدا من العلم تزدحم فيه النظريات والتطبيقات والبحوث .

وإذا كان علم النفس « ابن الفلسفة » فقد تعملق هذا الابن حتى يظن البعض أنه لا يمت للفلسفة بصلة ، ولكن ما هذا رأي مؤرخ مدقق لعلم النفس . أما الفلاسفة الذين نتحدث عنهم فى هذا الفصل فهم مجموعة لا تربط بينهم مدرسة معينة ، ولكن تربط بينهم صلة معينة ، إنهم مفكرون درسوا موضوعات نفسية

وأسهموا - كل حسب مقدرته - فى إثراء التراث النفسى الفلسفى إثراء عظيما ، ونتحدث عنهم خلال النقط التالية :

« فيليب ملانثون » Melanthon (١٤٩٧ / ١٥٦٠م) :

ألمانى ، هو صاحب الفضل فى صياغة المصطلح الدال على علم النفس فى اللغات الأجنبية بالألمانية Psychologie وبالإنجليزية Psychology (وهو مصلح تربوى ودينى ، إنسانى وعالم كبير ، كما أنه دارس ممتاز للدراسات الكلاسيكية التي تتضمن اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية إلى جانب الفنون)

ومما هو جدير بالذكر أنه حصل على درجة الليسانس من جامعة « هيدبرج » عام ١٥١١م وهو بعد فى الرابعة عشرة من عمره ، وهذا دليل على نبوغه المبكر ، وفى بداية حياته العلمية عمل أستاذا لتدريس اللغة اليونانية بجامعة « ويتبرج ».

وقد سمى « معلم ألمانيا » لأنه أسهم فى تطوير النظام التربوى وإصلاح المناهج ، سواء على مستوى المدارس أم على مستوى الجامعات ، كما أنه ساعد فى تأسيس بعض الجامعات الألمانية مثل جامعة « مربورج » وجامعة « كونسبرج ».

وكان يعتقد ، فى أهمية الدين من حيث كونه وسيلة لتعليم الإنسان الفضائل وغرسها فيه، وقد ألف كتبا كثيرة تدور حول النواحى الدينية والإصلاحات التربوية.

« فرنسيس بيكون » : Bacon (١٥٦١ / ١٦٢٦م)

إنجليزى ، التحق بجامعة « كمبردج » وهو فى سن الثالثة عشرة ، ولكنه خرج منها دون أن يحصل على إجازة علمية ، درس القانون والمحاماة وعمل بالدبلوماسية والسياسة ، وأهم كتبه على الإطلاق : « الأورجانون الجديد » أصدره عام ١٦٢٠م باللغة اللاتينية .

وليس لـ « بيكون » إسهام فى علم النفس خاصة ، ولكن إسهاماته كانت فى طريقة التفكير العلمى التى أثرت على القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد

عمل « بيكون » على تصنيف العلوم ، وهو يهدف من هذا التصنيف إلى ترتيب العلوم القائمة ، وهو يرتب هذه العلوم بحسب القوى الإدراكية للإنسان ، ويرى أن القوى الإدراكية للإنسان تنحصر فى ثلاث : الذاكرة : وموضوعها التاريخ ، والمخيلة : وموضوعها الشعر ، والعقل : وموضوعه الفلسفة .

لكن بيكون يرى أن هناك مجموعة من الشوائب تحول دون أن يكون التفكير الإنسانى على أسس منطقية سليمة ، ولأجل ذلك يرى « بيكون » أنه لابد من منطق جديد ، هذا المنطق الجديد من شأنه أن يجنب الإنسان أربعة أنواع من الأوهام التى تؤدى إلى أخطاء فى التفكير ، وهذه الأوهام هى :

النوع الأول : أوهام القبيلة ، وهى ناشئة عن طبيعة الإنسان ، وهى مشتركة بين أفراد النوع الإنسانى عامة ؛ ذلك أن الإنسان يميل بفطرته إلى التعميم عندما يلاحظ بعض الحالات الفردية المتناثرة دون الالتفات إلى الحالات المعارضة ، وكذلك يميل الإنسان إلى الافتراض بأن فى الطبيعة نظاماً واطراداً أكثر مما هو متحقق فيها .

النوع الثانى : أوهام الكهف ، وهى ناشئة من الطبيعة الفردية لكل منا ؛ لأن لكل فرد منا نسيجا خاصا ، فهذه الأوهام صادرة عن الاستعدادات الأصلية والجبلية وعن التربية والعلاقات الاجتماعية والمطالعات ، فمثلا من الناس من هم أكثر ميلاً إلى الانتباه إلى ما بين الأشياء من اتفاق ، بينما آخرون يميلون إلى الانتباه إلى ما بين الأشياء من اختلاف وهكذا .

أوهام السوق : وهى ناشئة من ألفاظ اللغة ، لأن ألفاظ اللغة تتكون نتيجة حاجات الناس فى المجتمع - وحياتهم فيه ، والرغبة فى التعبير عن رغباتهم ودوافعهم وما يحبون وما يكرهون - وعلى هذا فاللغة فضفاضة ، وقد تكثر المجادلات اللفظية بين الناس لهذا السبب .

أوهام المسرح : وهى آتية مما نتخذه من آراء وأفكار ونظريات متوارثة عن الأجيال السابقة دون تمحيص ودراسة .

وهذه الأربعة فى نظر « بيكون » عيوب فى تركيب العقل تجعل الإنسان يخطئ فى فهم الحقائق ، ويجب أن يتحرر الإنسان منها ليعود عقله لوحة بيضاء تنطبع عليه الخبرات دون تشويه منا ، سواء أكان هذا التشويه متعمدا أم غير متعمد .

« رينيه دكارت » Descartes (١٥٩٦ / ١٦٥٠م)

فرنسى (درس فى كلية « الجزويت » ، وهى من المعاهد الفرنسية الراقية ، حيث تلقى دروسا فى الرياضيات والإنسانيات ، وأظهر اهتماما بالقانون والفلسفة والعلوم) وقد تنقل أثناء حياته بين فرنسا وهولندا طلبا للعلم والثقافة .

ونجد أن « ديكارت » أثر على الفلسفة الغربية من خلال الأسلوب الذى ناقش به تساؤلاته حول الطبيعة الإنسانية ، كما أنه يمكن القول بأن « ديكارت » أسهم فى علم النفس بما أثاره من أسئلة حول الإنسان ، وأهم كتبه على الإطلاق ، « مقال فى المنهج » أصدره عام ١٦٣٧م .

وفى دراسته للإنسان - ضمن إطار فلسفته - بدأ بتمحيص الأفكار البسيطة معتمدا على التفكير المنطقى ، حيث وجد أن المعلومات التى تأتى من الحواس يمكن الشك فيها ، لأن الحواس تخدعنا فى بعض الأحيان ، ودليل ذلك حدوث الخداعات والهلوسات فى النوم واليقظة ، كما أن انفعالاتنا تؤثر على إدراكاتنا . ثم توصل « ديكارت » من شكه فى دقة الحواس ، إلى تأكده من أنه يفكر ، وتوصل إلي عبارته الشهيرة « أنا أفكر إذن أنا موجود » .

وقد رأى « ديكارت » أن النفس مستقلة عن الجسم ، فهما جوهران مختلفان، ذلك أن أهم خاصية للجسم هى الامتداد ، وأهم خاصية للنفس هى التفكير ، كما يرى أن النفس لا تحل فى الجسم حلول النوتى فى النفسية ، ولكن النفس تتحد مع الجسم بحيث لو جرح الجسم فإن النفس تنتبه إلى الجرح بالألم ، كما أنها تدرك أخطاره بالعقل .

ويرى كذلك أن الحالات النفسية مثل الألم والجوع والعطش ، والحركات المنعكسة والأحلام والتذكر ، هى حالات ناشئة من اتحاد النفس بالبدن . ومكان

النفس فيما يرى « ديكارت » الغدة الصنوبرية حيث تقوم النفس بوظائفها وتنتشر قواها فى الجسم كله ، وهى على هذا تؤثر على الجسم ، أما الجسم فإنه يؤثر على النفس ، بأن يبلغ إليها الحركات الواقعة عليه والحادثة فيه فتترجمها هى (أى النفس) ألوانا وأصواتا وروائح ومعلومات ورغبات ولذات وآلاماً .

وعند دراسة نشاط الجسم وحركاته قارن بين الآلة والجسم ، واعتبر أن حركات الجسم آلية غير إرادية ، بمعنى أن الاستجابات العضلية والعصبية هى نتيجة لاستثارة أعضاء الحس ، فهناك فى نظره قنوات وطرق محددة ، تسير فيها الاستثارات الحسية والاستجابات الحركية ، كما أنه يوجد بالجسم قنوات تسير فيها الروح الحيوانية ، وهذه القنوات توصل بين أعضاء الجسم المختلفة ، الأوعية الدموية .

وثمة نقطة رئيسة فى فلسفة « ديكارت » وهى التى تتصل أكثر بموضوع علم النفس - وهى الأفكار ، إذ يرى أن الأفكار على ثلاثة أنواع :

- أفكار مبنية على الإحساسات ، وهى أفكار آتية من الخارج مثل اللون والصوت والطعم والأشكال .

- أفكار مركبة وهى أفكار تتركب من آثار الطائفة الأولى ، مثل فرسى لونه أسود أو أحمر أو أبيض .

- أفكار فطرية وهى أفكار تستنبطها النفس من ذاتها ، وهى أفكار واضحة بسيطة أولية ولدت معنا ، وعلينا اكتشافها مثل فكرة الزمان وفكرة المكان وفكرة الكمال .

« باروخ سبينوزا » : Spinoza (١٦٣٢ / ١٦٧٧م)

يهودى هولندى ، كان مقرراً أن يتجه إلى سلك الكهنوت اليهودى ولكنه اتجه إلى دراسة الفلسفة . أهم كتبه على الإطلاق « الأخلاق » نشر بعد وفاته .

يميز « سبينوزا » بين مستويات متعددة من المعارف الإنسانية .

الأول : معرفة بالتجربة المجملة أو الاستقراء العلمى ، وهى إدراك الجزئيات عن طريق الحواس على ما يتفق بحيث تنشأ فى الذهن أفكار عامة من تقارب الحالات المتشابهة مثل معرفتى أن الماء يطفئ النار .

الثانى : معرفة استدلالية ، أى عملية تطبق قاعدة كلية على حالة جزئية كتطبيق معرفتى أن الشىء يبدو عن بعد أصغر منه عن قرب على رؤيتى للشمس ، فأعلم أن الشمس أعظم مما تبدو .

الثالث : معرفة عقلية حدسية تدرك الشىء وتعرف ماهيته أى خصائصه الجوهرية مثل معرفتى أن النفس متحدة بالجسم لمعرفتى ماهية النفس ، ومثل معرفتى خصائص شكل معين بمجرد تعلمى تعريفه ، ومثل معرفتى أن الخطين المتوازيين مع خط ثالث متوازيان .

ويرى « سبينوزا » أن النوع الثالث من المعارف هو أكمل مستويات المعرفة لأن معانيها واضحة ، ويرى كذلك أنه من خلال هذا النوع من المعارف يمكن للعلم أن ينمو ويتطور .

وأهم جزء يتصل بعلم النفس فى فلسفة « سبينوزا » هو ما يخص الإنسان ، فالإنسان مركب من حال امتدادى ، هو الجسم ، وكذلك من حال فكرى هو النفس ، ويرى « سبينوزا » أن الجسم آلة مؤلفة من آلات فرعية ، والنفس فكرة موضوعها الجسم ، والنفس فى نظره تبدأ وتنتهى مع الجسم ، والإحساس ظاهرة جسمية تعتمد على الحواس أما الإدراك فهو ظاهرة عقلية فكرية تقوم على معالجة الإحساس وتأويله .

أما القوانين التى يقوم عليها التفكير عند الإنسان فهى قوانين الترابط أو التداعى . ويرفض « سبينوزا » تقسيم النفس إلى قوى وعلى ذلك فالإرادة والعقل فى نظره لا يتمايزان .

ومن آرائه أيضا أن الشعور بالحرية عند الإنسان هو خطأ ناتج من نقص فى الفهم ، حيث يعتقد الناس أنهم أحرار فى أفعالهم وتصرفاتهم لأنهم يجهلون الدوافع

التى تدفعهم إلى أعمالهم ، والمثال الأمثل على سذاجة الاعتقاد بالحرية عند الناس أن الطفل الخائف يظن أنه حر فى أن يهرب من مصدر الخوف أو لا يهرب إلا أنه يهرب مضطراً غير مختار اتقاءً لمصدر الخوف ، وكما يظن السكران أن حديثه ومشيته أثناء سكره تصدر عن حرية تامة ، فإذا ثاب إلى رشده عرف أن ما صدر من حديث أو حركة أو مشية أثناء سكره إنما هو من تأثير الخمر ، وأنها أمور اضطر إليها ولم يخترها ، وكذلك لو كان الحجر يفكر لاعتقد أنه يسقط من أعلي إلى أسفل بإرادته الحرة ، لكن الإنسان فى نظر « سبينوزا » تحركه قوى لا يدرك كنهها وعلى هذا فإنه من الخطأ أن نغضب من الحمقى إذ ليس الأحمق ملزما أن يحيا وفق قوانين العقل .

وتوجد فى الإنسان فى نظر « سبينوزا » الشهوة والعقل إذ ليس الناس معنيين جميعا - من قبل جبلتهم الطبيعية - أن يسيروا وفقا للقوانين العقلية ، كما أن الإنسان فى نظره يولد جاهلا ويقضى شطرا طويلا من حياته قبل أن يدرك الفضيلة ويتعلمها ، ومن ثم يكتسبها ، ومن أهم ما ينفع الإنسان فى حياته أن يعيش طبقا لقوانين العقل ، وليس من إنسان إلا ويريد العيش آمنا من الخوف لكن ذلك مستحيل إذا كان لكل إنسان أن يفعل ما يروق له ، أى أنه إذا ترك الناس وشهواتهم انتفى الأمان وانتشر الخوف ، وإذا لم يتعاون الناس كانت حياتهم يائسة ، وربما استحالت هذه الحياة ، ولهذا تاق الناس إلى الاتحاد والانخراط فى سلك الجماعة ، وهنا نشأت السلطة العليا على تنفيذ الميثاق المعقود بين الناس ، وظهرت القوانين المنظمة للعلاقات بين الناس بعضهم وبعض وبين السلطة العليا ، وعلى الأفراد أن يقيموا بينهم وبين السلطة حلا وديا قوامه تحقيق المصلحة العامة .

« جود فريد ليبنز » : Liebniz (١٦٤٦ / ١٧١٦م)

ألمانى - ولد بمدينة « ليبزج » الألمانية الشهيرة حيث كان أبوه أستاذا بالجامعة ، اهتم منذ حداثته بالقراءة وكانت مكتبة أبيه مدرسته الأولى ، كان شغوفا بالقراءة إلى حد كبير ، تجول فى دول غرب أوربا طلبا للعلم ، ويقال إنه من أكثر كتاب

عصره وفرة فى الإنتاج . أهم كتبه (مذهب جديد فى الطبيعة واتصال الجواهر) أصدره عام ١٦٩٥م .

ومن أهم مبادئه الفلسفية أنه اعتقد أن العالم منظم ولا يوجد شيء يدل على اختلال النظام فى هذا العالم ، وأن على الإنسان أن يكتشف القواعد التى نظم على أساسها العالم ، والإنسان هو جزء من هذا العالم المنظم ، وإذا حاولنا تفسير شيء فإن تفسيره إنما يكون فى إطار هذا العالم الواسع المنظم .

والتفكير أو المعرفة مركز أساسى فى وجود الإنسان ومحور اهتمامه ، وأن معارفنا لا تعتمد كلها على الحواس ، حيث إن أفكارنا عن وجودنا وعن ذاتيتنا وعن المادة وعن الأفعال وعن الآخرين إنما تأتى من تجربة داخلية ذاتية ، وعلى هذا فإن التفكير والمعرفة هما عملية إعطاء صور للأشياء المدركة .

ويرى « ليبنز » أن العلاقة بين العقل والبدن هى علاقة تواز . ويشبه هذه العلاقة - بين العقل والبدن - بساعتى حائط تدقان فى اللحظة نفسها لإعلان الوقت ، ولكن لا تؤثر ساعة منهما على الساعة الأخرى ، وعلى هذا فإن المظاهر الميكانيكية للجسم والمظاهر التفكيرية للعقل ، رغم ما يبدو من اتصالهما ، إلا أن كلا منهما لا يؤثر على الآخر .

ويتكون الوجود فى نظره من الموناد Monads أى الجواهر المفردة ، وهى أشبه بالذرات التي تتكون منها المادة ، وهى وإن كانت أشبه بالذرات فهى ليست ذرات بالمعني الحرفى لهذه الكلمة ، إنها أقرب إلى مفهوم العمليات والمواد المكونة للبناء . والموناد ليس لها امتداد ولا يمكن رؤيتها ، كما أنه لا يمكن تحطيمها .

والعملية الإدراكية - وهذا هو المهم - تتم فى نظره عن طريق حركة مستمرة تتجمع فيها الموناد لتكون عمليات شعورية ، بمعنى أن الإدراك هو العملية التى يتم بها تحويل الوحدات اللاشعورية إلى وحدات شعورية ، حيث تتجمع الوحدات اللاشعورية ثم تمر من عتبة الشعور .

كما يعتقد « ليبنز » بأن الإنسان صاحب إرادة حرة ، ذلك أن العالم ترعاه عناية الله مما جعل العالم يعيش طبقا لمبدأ التجانس والعقلانية ، ويكون التعامل مع العالم المحيط بنا إما بالموضوعية التى تظهر فى التفكير الرياضى والتفكير المنطقى، أو يكون التعامل بالذاتية عن طريق تصور العالم المحيط بنا من وجهة نظر معينة لا تراعى الموضوعية ، وتتسم بميول الشخص واعتقاداته .

ويؤكد « ليبنز » على أن العمليات الإدراكية عند الإنسان إنما تتصل بخصائص أساسية ولادية قبلية موجودة فى الإنسان ، ومن شأن هذه الأساسية أن تضفى التجانس على المدركات ، (ستظهر فكرة تنظيم الإدراك عند الجشطلت) وإضفاء التجانس هذا يتصل بعقلانية الإنسان ، وهو يتعامل مع العالم الذى يعيش فيه .

« إيمانويل كنط » Kant (١٧٢٤ / ١٨٠٤م)

ألمانى – أكبر فلاسفة العصر الحديث وأعظمهم شأنا وأقواهم تأثيرا . ولد بمدينة « كونجسبرج » من أبوين فقيرين على جانب عظيم من التقوى والفضيلة . درس اللاتينية واللاهوت والرياضيات والفلسفة . أهم كتبه « نقد العقل النظرى » أصدره عام ١٧٨١م و « نقد العقل العملى » أصدره عام ١٧٨٨م .

يقول « كنط » إن « هيوم » (الفيلسوف الإنجليزى الشهير الذى نعرض له فى موضع آخر من هذا الكتاب) قد أيقظه من سباته اليقينى ، أى أحدث له آثاراً عقلية وفكرية . وقبل أن يقرأ « هيوم » كان « كنط » يميل إلى الفيلسوف الألمانى « ليبنز » وذلك بتأثير من « كريستيان ولف » Wolff (١٦٧٩ / ١٧٥٤م) الفيلسوف والرياضى الألمانى وأحد الذين تأثر بهم « كنط » تأثرا شديدا . وكانت الإثارة العقلية التى أحدثتها قراءة « كنط » لأعمال « هيوم » فيما يتعلق بنظرية المعرفة الإنسانية بوجه خاص قوية . وقد حاول « كنط » فى فلسفته أن يدرس موضوع المعرفة الإنسانية مؤكداً على أهمية « العقل » فى المعرفة .

وقد أشار « كنط » إلى أن المعارف التى نكتسبها من التجربة الحسية يتم تنظيمها عن طريق عمليات سليقية جبلية فى العقل الإنسانى ، فمثلا عندما نرى

واقعة تحدث بسبب واقعة أخرى فإن « كنط » يرى أن الاعتقاد بمبدأ السببية إنما هو موجود فى طبيعة التفكير الإنسانى وفطرته .

وقد حاول « كنط » أن يحدث ثورة فى نظرية المعرفة ، ذلك أن الفلاسفة السابقين على « كنط » وخاصة العمليين البريطانيين (أو ما نسميهم فى هذا الكتاب الترابطية القديمة والفلسفية) افترضوا أن المعرفة الإنسانية بهذا العالم الخارجى ، إنما تتحقق لأن الأشياء فى العالم الخارجى تفرض نفسها على العقل . لكن « كنط » فى تفسيره الثورى قال : بأن الأشياء إنما تدرك حسب أفهامنا . ويعطى مثالا على ذلك فيقول : إذا وضع الشخص على عينيه نظارة لها لون بنى مثلا ، فإن هذا الشخص يرى الأشياء فى العالم الخارجى من خلال هذا اللون البنى ، ويضاف هذا اللون البنى على الألوان الأصلية للأشياء الموجودة فى العالم الخارجى ، ويمكن لهذا الشخص أن يقول : كل شىء بنى اللون . ويقول « كنط » إن ما يحدث بالنسبة لاكتساب المعرفة الإنسانية هو شىء من هذا القبيل ، ذلك أننا مزودون بخصائص أو قوالب معينة ، هذه القوالب من شأنها تنظيم الأشياء الواردة إلينا من العالم الخارجى ، وبهذا يكون العقل عنصرا فعالا فى تنظيم الخبرات الحسية الواردة إليه، وليس عنصرًا سلبيا تنطبع عليه هذه الخبرات الحسية .

هذه القوالب هى صور أولية قبلية موجودة سليقيا فى العقل الإنسانى ، وليست مشتقة من التجربة الحسية ، وهذه القوالب مثل الزمان أو المكان أو العلية يمكن تسميتها المقولات ، أى ما يقال على الشىء المدرك من أنه حدث فى مكان معين أو زمان معين أو لسبب معين . وقد اعتقد « كنط » أن علم النفس (الذى يعرفه بأنه الدراسة الاستنباطية للعقل) لا يمكن أن يكون علما لأن علم النفس لا يمكن أن يكون مثل الرياضيات فى دقة أحكامه وفى عموميتها ، وفى طريقة الوصول إليها ، كما أن هناك سببا آخر لاعتقاد « كنط » بأن علم النفس لا يمكن أن يكون علما ، ذلك أن العلم فى رأيه له جانبان : الجانب التجريبى الذى يتضمن الملاحظة والبحث ، والجانب العقلى أو الميتافيزيقى الذى يتضمن الأسس الفلسفية التي تبرر وتبين

أساليب الوصول إلى الحقائق فى هذا العلم ، وهذه الشروط تنطبق على الفيزياء بينما لا تنطبق على علم النفس ، لأن موضوع علم النفس - وهو الروح أو الفكر - ليس له مضمون ، ولا يمكن أن يقوم علم لموضوع ليس له مضمون أو مادة Subject matter كما أنه فى نظر « كنط » لا يمكن معاينة الروح أو الفكر، لأنها كما أسماها « الأنا المتعالية » هذه الأنا المتعالية (أى المتعالية عن الإدراك الحسى) قد تكون موجودة بذاتها ، ولكنها ليست مدركة ، ولكن « كنط » يرى - مع ذلك - أنه من الممكن أن توجد « الأنا الإمبيريقية » وهى مجموعة من الإحساسات والمحتويات العقلية ويمكن دراستها عن طريق الاستنباط ، ولكنها لا يمكن أن تكون موضوع علم من العلوم ، لأنه ينقصها الجانب العقلى أو الميتافيزيقى الذى يتضمن الأسس الفلسفية التى تبرز وتبين أساليب الوصول إلى الحقائق فى هذا العلم .

أما موضوع الشعور أو الوعى awareness فقد عالجه « كنط » أثناء حديثه عن « الأنثروبولوجيا » أو علم الإنسان - حيث قال : إن قمنا بفحص وعينا فإننا سنجد بعض المدركات واضحاً وبعضها الآخر غائماً غامضاً ، وتوصل إلى أن عقل الإنسان يشبه خريطة واسعة لكن الأجزاء المضيئة الواضحة منها أجزاء قليلة ، هذا ويمكن القول بأن فكرة الوعى أو الشعور عند « كنط » أثرت على ظهور الفكرة نفسها تقريبا عند « فونت » صاحب البنائية ، وكذلك فكرة خريطة العقل الإنسانى ووضوح أجزاء قليلة منها أثرت على ظهور فكرة اللاشعور عند «فرويد » صاحب مدرسة التحليل النفسى . وهذا التأثير الذى يمكن أن ننسبه إلى « كنط » على بعض علماء النفس ، هو جزء من التأثير الهائل الذى أحدثه « كنط » على الفكر الألمانى خاصة والفكر الأوروبى عامة ، وليس هذا بمستغرب فهو أكبر الفلاسفة فى الغرب وأعظمهم بعد « أرسطو » فيلسوف اليونان .

ولا تكتمل الصورة عن علم النفس الفلسفى عند « كنط » إلا بالإشارة إلى فلسفته الأخلاقية فهو يقول « اعمل بحيث يكون فعلك قانونا كليا دون تناقض » أى أن أساس الحكم على فعل بأنه مقبول أخلاقيا أو غير مقبول أو نتصور تعميمه على

سلوك البشر ، فإن كان تعميم هذا الفعل على سلوك البشر يؤدى إلى التناقض واضطراب الحياة فهو فعل مرفوض أخلاقيا . مثال ذلك القتل أو السرقة أو الاغتصاب لو تصورنا أن هذه الأفعال عممت على سلوك البشر لأصبح المجتمع فى حالة من الفوضى والاضطراب ، ولهذا فهى أعمال مرفوضة .

وعلى العكس أفعال مثل التعاون والبناء وإغاثة الملهوف لو عممت على سلوك البشر ، ازدهر المجتمع الإنسانى ونما وتقدم فهى على ذلك أفعال مقبولة أخلاقيا .

وعلى هذا الأساس الذى وضعه « كنط » تقاس أفعال الإنسان ويحكم عليها . ويلح « كنط » فى بيان أهمية القانون الأخلاقى حيث يقول « شيئان يملآننى بالإعجاب : السماء المزدانة بالنجوم فوق رأسى والقانون الخلقى فى الأرض » .

ويؤكد « كنط » على الإرادة الصالحة للإنسان فهى أساس الأخلاق ، أما المواهب الطبيعية مثل الذكاء والشجاعة أو مواهب الحظ مثل المال أو السلطة ، فهى ليست خيرا في حد ذاتها ، لأنها وسائل تستخدمها الإرادة كما تشاء فتكون أحيانا مصدر خير ، وأحيانا مصدر شر ، والدليل على ذلك أن رباطة جأش المجرم تزيد من شروره وتثقل جرمه .

« جرمى بنثام » Eentham (١٧٤٨ / ١٨٣٢م)

إنجليزى - صاحب مذهب المنفعة . أهم كتبه « المدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع » أصدره عام ١٧٨٩م .

وهو يرى أن الناس يطلبون اللذة ويتجنبون الألم بالطبع شأنهم فى ذلك شأن الحيوان ، ولكنهم يمتازون عن الحيوان بأنهم يتبعون مبدأ النفعية عن طريق تحكيم العقل ، أى أنهم يحكمون بأن الفعل الخير هو الذى يعود بلذة مستمرة ، أو الذى تزيد فيه اللذة عن الألم ، وأن الفعل الشرير هو الذى يعود بألم مستمر أو الذى يزيد فيه الألم عن اللذة .

ويعطى « بنثام » مثالا على ذلك بأن القانون نافع لأكبر عدد ممكن من الناس،

لأنه يردع المجرمين فى سبيل راجة الغالبية العظمى من أفراد المجتمع ، وكذلك يرى « بنثام » : أن الغاية التى يسعى إليها الفرد والمجتمع هى تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس . وسيظهر مذهب اللذة بعد ذلك فى اصطناع «فرويد » صاحب مدرسة التحليل النفسى لمبدأ اللذة كأحد المبادئ الأساسية للحياة النفسية للإنسان .

« آرثرشوبنهور » Schopenhauer (١٧٨٨ / ١٨٦٠م)

ألمانى – فيلسوف التشاؤم ، درس الفلسفة وقرأ الكتب الدينية الهندية التى تنظر للحياة من خلال منظار أسود فتأثر بها ، أهم كتبه « العالم إرادة وتصور » أصدره عام ١٨١٩م .

والسؤال الأساسى عند « شوبنهور » هو : كيف ندرك العالم ؟ وما قيمة هذا الإدراك ؟ ويجيب على ذلك بأن الإحساسات حالات ذاتية ، لكن الفهم هو الذى يفرغ على الإحساسات دلالاتها ومعناها ، وعملية إفراغ الدلالة هذه فعل لا إرادى والعالم بالنسبة للإنسان هو تصورات الإنسان عن هذا العالم ، وكما أن للإنسان إحساسات يعرف بها العالم المحيط به إلا أن الإنسان عارف كذلك بأن هناك عالما آخر فى نفسه هو الغرائز والميول ، إلا أن الإرادة هى جوهر الإنسان .

وهو يرى كذلك أن ثمة فرقا بين الإنسان والحيوان ، ذلك أن الإنسان له عقل باطن يخفى غايته ، والإنسان كذلك قادر على استخدام الآلات المصنوعة ، إلا أن الحيوان حركاته ظاهرة وغاياته معروفة ومحدودة ، وقد أدى هذا التفاوت فى الصور الطبيعية للمخلوقات إلى رغبة كل منها فى البقاء وتنازعها فى سبيله ، مما أدى بالتالى إلى التعارض والصراع ، ذلك أن الإنسان يفترس الحيوان ، كما أن الحيوانات تفترس بعضها بعضا ، والجميع يفترسون النبات كما أن النبات يستهلك الماء والهواء ، وعلى ذلك يخرج « شوبنهور » بنتيجة مؤداها : أن « الحياة شر » وأن ما نقابله من خير هو أمر زائف ، وأكبر دليل فى نظره على أن الحياة شر هو موضوع اللذة والألم ، ذلك أنه يرى : أن الإحساسات بالألم والانفعالات المصاحبة له

أكثر بكثير فى - حياة البشر - من الإحساسات باللذة والانفعالات المصاحبة لها. ونظرة التشاؤم عند « شوبنهور » ستظهر واضحة بعد ذلك فى مدرسة التحليل النفسى الألمانية المنشأ .

« هوربرت سبنسر » Spencer (١٨٢٠ / ١٩٠٣م)

إنجليزى - درس العلوم الطبيعية والتاريخ والهندسة إلى جانب شغفه بالمناقشات العلمية والسياسية والدينية . كما اهتم بدراسة موضوع « التطور » ، ومن أهم كتبه « مبادئ علم النفس » أصدره عام ١٨٥٥ .

ويرى « سبنسر » أن قانون التطور يقتضى بأن كل شىء يبدأ ظاهرة بسيطة ثم تتجمع حولها بالضرورة ظواهر أخرى فتركب كلا أعقد فأعقد ، والطبيعة فى نظره مادة وحركة ، وما « الشعور » عند الإنسان - على اختلاف صوره - إلا تعقد المادة والحركة . والإحساسات صدمات عصبية أولية بها نحصل على « مادة شعورية » وهذه المواد الشعورية ترتبط بعضها مع بعض بواسطة قوانين التداعى وبذلك نحصل على الصور الخيالية والمعانى المجردة والاستدلالات والأحكام .

ويرى كذلك أن ترقى الفكر إنما هو راجع إلى ترقى الجهاز العصبى وإلى ملاءمة تدريجية بين الكائن الحى وبين البيئة ، كما يشيد بنظرية التطور عند «دارون » - إذ كان معاصرا له - ويرى أن التطور فى جملته هو علاقة بين ظواهر خارجية وظواهر داخلية ، ذلك أن الظواهر الخارجية تؤثر في الجهاز العصبى ، والجهاز العصبى بدوره يؤثر فى الجانب الوجدانى والانفعالى عند الإنسان . وهو بذلك يبذل محاولة ابتدائية فى سبيل تفسير سلوك الإنسان على أساس من نشاط الجهاز العصبى .

« فردريك نيتشه » Nietzche (١٨٤٤ / ١٩٠٠م)

ألمانى - اهتم بالكتابة عن الإنسان ومصيره ، وعن أهمية الأخلاق وقيمتها وتأثيرها فى حياة البشر . قضى جزءا من حياته مريضا ، وأثر ذلك على فلسفته

ونظرته للحياة . أهم كتبه « ماوراء الخير والشر » أصدره عام ١٨٨٦م و « أصل الأخلاق » أصدره عام ١٨٨٧م . ويتألف مذهبه من قسمين أحدهما سلبى والآخر إيجابى :

فى القسم السلبى من فلسفته : يتوجه « نيتشه » بنقد عنيف للقيم الحضارية التى سادت أوربا فى القرن التاسع عشر ، ويتلخص هذا النقد فى كلمة واحدة «العدمية الأوربية » وهو يقول إن كل ثقافة تفترض « جدول قيم » أى عددا من الخيرات تعتبر أعظم الخيرات ويتجه إليها المجتمع قبل اتجاهه إلى المثل العليا ، و « جدول القيم » هذا إنما يكون صورة لأخلاق الناس الذين يصطفونه بل صورة لمزاجهم البدنى ، ومن هنا نشأت ثقافتان كبيرتان إحداهما ثقافة المنحطين المستضعفين ، والأخرى ثقافة الأقوياء السادة ، وجميع القيم التى اصطنعتها الحضارة الأوربية هى ثقافة منحطين ، وتعود بأصلها إلى الشعب اليهودى الذى هو شعب عبيد . وهذه الثقافة المنحطة يجب التخلى عنها ، ويجب تحطيم « جدول القيم » نتاج هذه الثقافة ، لأن هذا الجدول لا يلائم سوى الضعفاء المساكين .

وفى القسم الإيجابى من فلسفته : يشير إلى ثقافة السادة ، وهى مجموعة من المعتقدات والأخلاق يسمو بها الإنسان القوى ، والمبدأ المهيمن على هذه الأخلاق والمعتقدات هو مبدأ تأكيد القوة . إن القوة فى نظره موجودة ولسنا بمحتاجين أن نسوغ وجودها ، ذلك أنها تفرض نفسها . وهو يرى كذلك أن الحياة تتوق إلى الازدهار والانتشار ولو بالطغيان على الغير . وبسط السلطان عليه ، إن الحياة - من ثم - دافع إلى الحماسة وإلى الفتح . إن إرادة القوة هى التسمية الدقيقة والصحيحة لإرادة الحياة ، وكل إرادة قوة تذهب إلى أقصى مداها ، لأن الحياة لا تزدهر إلا بإخضاع ما حولها .

ومن هذا يهدف « نيتشه » إلى أن تنقلب القيم رأسا على عقب ، وهذا الانقلاب للقيم لازم بالضرورة ، ذلك أن إرادة القوة فردية فهى تحب ذاتها وتقسو على الغير ، بل تقسو على نفسها ، إذ ترى فى المخاطرة والألم ضرورة لها ، فيجب

أن نحب السلم كوسيلة لحرب جديدة ، ونحب السلم القصير أكثر من السلم الطويل، ذلك أن الحرب والشجاعة هما صانعا عظائم الأمور ، كما أن البطل الذى يقهر نفسه ويقهر غيره لا يطلب سعادة شخصية وإنما يخدم غاية تعلو عليه وهى إيجاد «الإنسان الأعلى » ، وهو صنف قوي من الناس .

إن الشفقة فى نظر « نيتشه » تستبقى الإنسان فى حالة من الضعف والمهانة بل تزيده ضعفا ومهانة ، وكما أن التطور والارتقاء وصل بالإنسان إلى الإنسان الراهن ، فكذلك يجب الذهاب إلى أبعد منه وهو « الإنسان الأعلى » إن الإنسان الراهن حبل مشدود بين الحيوان الأعجم والإنسان الأعلى ، وهذا الحبل مشدود فوق الهاوية .

إن نظرية التطور والارتقاء تحتم علينا قبول الحياة وتخلع عليها معنى ، وتعين لها غاية ، وهذه الغاية هى الحالة التى يبلغها الإنسان حيث ينبذ جدول القيم الراهنة في أوربا ، ويعود إلى جدول القيم الذى كان موجودا عند الشعوب العظيمة والشريفة التي خلقت قيمها ولم تتلق قيما من الخارج ، والإنسان الأعلى المنتظر سيفيد من مكتشفات العلم للسيادة على الطبيعة نفسها ، غير أنه يجب أن يتوقع آلاما شديدة فى صراعه المستمر ضد الضعفاء الذين يستخدمهم ، فقد يستطيعون أحيانا بفضل عددهم أو دهائهم أن يقهروه ، وعلى ذلك يجب أن يكون شعاره «الحياة الخطرة » ، ولما كانت غايته الفوز فإنه يأبى كل شفقة على المساكين ، ولما كان يلخص الإنسانية فى شخصه فإنه يسودها وهو مطمئن الضمير ، ويجد أن الفوز غبطته الكبرى ، ويثبت مصيره إلى الأبد بقبوله حياة البطولة إلى غير نهاية .

وسوف تظهر بعض أفكار « نيتشه » لدى بعض علماء النفس ، مثل فكرته فى تمجيد القوة والحرب والحياة الخطرة ستظهر فى أفكار مدرسة التحليل النفسى تحت اسم « دافع العدوان » . أما نقده للحضارة الأوربية فيظهر أيضا عند كثيرين من بينهم « فروم » .

★ ★ ★

الفصل الخامس

بدايات علم النفس التجريبى

مقدمة :

كان قدرا لعلم النفس أن يكون تأسيسه على يد العالم الألمانى « فونت » الذى أسس أول مختبر لعلم النفس فى مدينة « ليبزج » فى ألمانيا عام ١٨٧٩م . وبهذا استقل علم النفس عن - الأم الرؤوم - الفلسفة . وعن - الأب الرحيم - علم وظائف الأعضاء ، ذلك أن الفلسفة والفسيولوجيا هما الأصلان الأساسيان اللذان انبثق منهما علم النفس الحديث .

ولم يكن مجىء « فونت » إلى ساحة علم النفس بالحدث الفجائى ، فذلك أمر لا يحدث فى تاريخ العلم ، ولكن هذا الحدث كانت له مقدمات وممهدات ، هذه المقدمات والممهدات قام بها مجموعة من أفذاذ العلماء من مؤسسى علم النفس الحديث ، يزاحمون « فونت » مجده ، ويشاركونه مسئوليته .

وقد حمل لواء علم النفس الفلسفى بعض الفلاسفة ، كان معظمهم من الألمان ، أما لواء علم النفس التجريبى فقد حمله مجموعة من العلماء ، جاء غالبيتهم من مجال علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ، وكانوا جميعا - وهذا أمر نتوقف عنده - من الألمان . وأسهم الفسيولوجيون الألمان فى بناء علم النفس التجريبى وتحريره من الفسيولوجيا ، وكانت هذه الأحداث الجسام فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

وهكذا شهد القرن التاسع عشر تحرير علم النفس من الفلسفة ، حيث كف الفلاسفة عن الجلوس على كراسى علماء النفس تاركين تلك الكراسى لأصحابها ، كذلك

شهدت أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحرير علم النفس من الفسيولوجيا ليصبح علما مستقلا . وكانت حركة التحرير هذه على أيدى العلماء الألمان .

لكن ظهور ألمانيا مسهمة رئيسية - بل وحيدة - فى نشأة علم النفس الحديث ظاهرة تستحق أن يقف عندها المؤرخ المدقق ، ويسأل : لماذا ألمانيا ؟ وهو سؤال سوف نتعرض للإجابة عليه بعد أن نتحدث عن كبار العلماء الذين تحملوا قبل « فونت » ومعه مسئولية قيام علم النفس الحديث ، والرأى فى هؤلاء العلماء الذين نحرر عنهم هذا الفصل أنهم دللوا على مقدرة رفيعة تجلت فى أعمالهم العلمية الباهرة ومواهبهم المتعددة واهتماماتهم البالغة الاتساع ، فكان كل واحد منهم « رجلا ومدرسة » فحق لمؤرخ علم النفس أن يفخر بهم .

هذا وقد لفتت الأنظار نحو دراسات علم النفس التجريبى الفسيولوجى ملاحظتان أبداهما اثنان من علماء الفلك ، حيث لاحظ الفلكى الإنجليزى «ماسكيلين » Maskelyne عام ١٧٩٥م أن مساعده أخطأ فى حساب الوقت الذى يستغرقه أحد الأفلاك فى المرور من نقطة إلى أخرى ، وقد حذر الفلكى مساعده ونبهه إلى مراعاة الدقة وأخفق المساعد فى تحقيق الدقة رغم هذا التحذير .

وبعد عشرين عاما اهتم « بسل » Bessel أحد الفلكيين الألمان - وتلميذ "ماسكيلين" - بدراسة أخطاء القياس التى تحدث عند ملاحظة الأفلاك وتبين له أن هذه الأخطاء تحدث عند جميع الفلكيين ، وتوصل من ذلك إلى وجود فوارق بين الفلكيين فى دقة ملاحظة الأفلاك ، وهذا الأمر وإن كان يبدو غير ذى أهمية بالنسبة لعلم النفس التجريبى إلا أنه لفت الأنظار إلى مسألتين :

الأولى : أن على علم الفلك أن يأخذ فى الحسبان أخطاء الملاحظ البشرى .

الثانى : أنه إذا كان للبشر أخطاء فى الملاحظة فإن على العلوم الأخرى غير الفلك - علم النفس خاصة - أن تأخذ ذلك فى الحسبان .

وهكذا التفتت الأنظار إلى دراسة العمليات الإحساسية ، والعمليات الإدراكية،

وذلك من خلال دراسة وظائف الأعضاء الحاسة ، واهتم علماء النفس الألمان بهذه الدراسات الفسيولوجية .

والعلماء الألمان الذين أسهموا فى تأسيس علم النفس التجريبى المعتمد على أسس من الفسيولوجيا نتحدث عنهم فى النقط التالية :

« جوهان هربارت » Herbart (١٧٧٦ / ١٨٤١م)

ألمانى - فيلسوف وعالم نفس وعالم تربية . درس على يد الفيلسوف الألمانى الكبير « فختة » (١٧٦٢ / ١٨١٤م) وعمل بالتدريس بجامعة « جوتنجن » الشهيرة ، ثم خلف عملاق الفلسفة الألمانية « كنط » فى جامعة « كونجسبرج » ، ثم عاد إلى جامعة « جوتنجن » بعد ذلك وبقى هناك إلى آخر حياته .

ورغم تأثير « كنط » الساحق على عصر « هربارت » إلا أن « هربارت » تأثر تأثراً شديدا بالفيلسوف الألمانى الكبير « لينبز » .

وقبل أن نعرض لموجز نظريته النفسية ، نستعرض أهم إسهامات « هربرت » البارزة فى علم النفس والتى تتمثل فيما يلى :

- نشر عام ١٨١٦م ما يقال إنه أول كتاب علمى يحمل اسم علم النفس فى عنوانه ، وهو كتاب « مرجع فى علم النفس : محاولة لتأسيس علم النفس على التجربة والميتافيزيقا والرياضة ».

- إنكاره ، فكرة الملكات العقلية والتى تقول باستقلال القوى العقلية للإنسان كل قوة عن الأخرى .

- محاولته إقامة علم النفس على أسس موضوعية .

- إشارته إلى مصطلحات مثل : عتبة الشعور واللاشعور والوعى .

- تطبيق مبادئ علم النفس على التربية .

وفى إطار نظريته الفلسفية النفسية صور « هربارت » العقل على أساس أنه

مجموعة من الأفكار الابتدائية ، وهذه الأفكار مختلفة فى قوتها وشدتها ، وبعض هذه الأفكار هى من القوة والشدة بحيث تستطيع أن تعبر عتبة الشعور ، وبعض هذه الأفكار تبقى فى اللاشعور ، كما أشار « هربارت » إلى أن الأفكار ليس من الممكن أن تتمحى تماما (هذا ما أشار إليه « فرويد » فيما بعد). كما يرى أن الأفكار يتصارع بعضها مع بعض ، فتبقى الأفكار فى الشعور وتطرد بعض الأفكار إلى اللاشعور ، وهو فى هذا يحاول تطبيق مبادئ الرياضة عند العالم الإنجليزى الشهير « إسحق نيوتن » على مجال علم النفس ، ويعرض عملية التفاعل بين الأفكار فى صورة معادلات رياضية ، ويوضح كيفية دخول الأفكار إلى الشعور وخروجها منه .

وعلى هذا فإن « هربارت » يرى أنه يمكن دراسة الشعور دراسة رياضية دون الحاجة إلى وحدة ثابتة تقاس بها الظواهر قياسا مباشراً ، ويكفى - فى نظره - أن تعد هذه الظواهر بمثابة قوى متعارضة ، فإذا تعارضت ظاهرتان أو فكرتان بالقوة نفسها أوقفت كل منهما الأخرى ، وانتقلتا من مجال الشعور إلى مجال اللاشعور ، وإذا ما قويت فكرة فى اللاشعور خرجت إلى مجال الشعور .

ومن الصعوبات التى نواجهها عند دراسة نظرية « هربارت » هى أنه لا يمكن أن نربط بين أفكاره الرياضية أو النظرية ، وبين التطبيقات العملية فى الحياة ، كما أنه زاد الأمر صعوبة بقوله : إن كل عقل يعد بمثابة كائن فريد يختلف عن العقول الأخرى ، ولا يمكن أن يلقى ضوءا على طبيعة الوظيفة العقلية ، بل إنه أشار إلى أن حساباته فى « الرياضيات النفسية » هى حسابات تصورية تقوم على مسلمات افتراضية ولا تحتاج إلى براهين .

وقد هاجم « فونت » - عميد السيكولوجيين الألمان - نظرية « هربارت » فى علم النفس على أساس أنها نظرية فلسفية وغير عملية ، كما أن الخطأ الأساسى فى نظريته هو عدم إقدامه على دراسة وقياس العمليات النفسية كما سيفعل «فخنر» بعد سنوات ليست بالطويلة .

ولكن علينا أن نضع نصب أعيننا أن « هربارت » لم يكن يهدف إلى الدراسة التجريبية للعقل ، ولكن كانت وجهة نظره هى المزاوجة بين علم النفس والرياضة ، فعندما يحلل الشخص معادلة رياضية ، أو يبرهن نظرية « فيثاغورث » فإنه يتعامل مع وحدات مجردة ، ويمكن القول : إن جبر وهندسة « إقليدس » مثل علم النفس «الهربرتى » نسق فرض استنباطى قائم على قواعد أولية من المسلمات ، ولكن ثمة فرق أساسى وهو أنه يمكن عن طريق الجبر أن نحسب ثمن الفاكهة ، ويمكن عن طريق الهندسة أن نمسح الطرق أو نرسم مسارات الأفلاك بينما من غير الممكن تطبيق القوانين الرياضية فى مجال علم النفس .

« جوهانز مولر » Muller (١٨٠١ / ١٨٥٨م)

(وهو غير جورج موللر أستاذ جوتنجن والذى تعرض له بعد قليل) .

ألمانى، هو أحد رواد ومؤسسى علم النفس التجريبى الفسيولوجى . درس فى جامعة « برلين » وجامعة « بون » حيث عمل بالتدريس - ثم انتقل للعمل بالتدريس بجامعة « برلين » ليرتقى كرسى الأستاذية للتشريح والفسيولوجيا ، حيث أصبح حجة عصره فى الفسيولوجيا ، كما أنه أول من لقب « أستاذ فى الفسيولوجيا » ، وله تأثير بالغ الأهمية ، ويكفى أن نعدد من بين تلاميذه العالم الألمانى « هلمهولتز »

وأعظم كتبه على الإطلاق (أسس الفسيولوجيا) أصدره فى المدة من ١٨٣٣ إلى ١٨٤٠م ، وقد حاول « موللر » فى هذا الكتاب أن يقيم الفسيولوجيا علماً مستقلاً عن الطب . وتوصل إلى نظرية أسماها « الطاقات الخاصة للأعصاب » ويمكن تلخيصها فى النقط الآتية :

* أن العوامل الخارجية تحدث الإحساسات المختلفة فى كل عضو حساس ، وذلك طبقا للطبيعة الخاصة بكل عصب .

* أن العوامل الداخلية تحدث الإحساسات المختلفة فى كل عضو حساس حسب ما يخصه .

* أن العصب الخاص بكل عضو حساس هو مختص لنوع معين من الإحساس فقط ، وهذا العصب الخاص لا يتناسب مع بقية الأعضاء الحساسة ، وعلى ذلك فإن كل عصب لا يستطيع أن يحل محل عصب آخر أو يؤدى وظيفته .

وعلى هذا يرى « مولر » أن النشاط العصبى للإنسان يتشكل من أعصاب يتخصص كل عصب فى نشاط معين ، وعلى ذلك فإن الضرب على جزء من الجسم يؤدى إلى أن عصب الجلد يشعر بالألم ، وكذلك إذا دقت الأجراس فإن عصب الأذن يشعر بالصوت ، فإذا سطعت الأضواء فإن عصب العين يشعر بالضوء ، أى أن كل عصب له وظيفته الخاصة ، بغض النظر عما يحيط به من مثيرات ، ولا يستجيب إلا للمثيرات الخاصة به فقط دون غيرها ، وهذه المثيرات قد تكون خارجية ، وقد تكون داخلية ، ولا يمكن لعصب أن يقوم بوظيفة العصب الآخر .

وقد تساءل « مولر » هل الذى يحدث الإحساس هو العصب ؟ أى : هل للعصب طاقات إحساسية خاصة أم أن المخ هو الذى يحدث الإحساس وأن العصب مجرد أداة نقل ؟ . ويفضل « مولر » الرأى بأن الأعصاب لها طاقات إحساسية خاصة وتلك هى نظريته الأساسية فى علم النفس التجريبى الفسيولوجى .

« أرنست فبر » Weber (١٧٩٥ / ١٨٨٧م)

(أو « وبر » كما يسمى فى بعض الأحيان) .

ألمانى - عالم كبير درس التشريح والفسيولوجيا ، عمل بالتدريس بجامعة «ليبزج » الشهيرة منذ عام ١٨١٧م ، وهى السنة التى وصل فيها « فخنر » إلى «ليبزج» لدراسة الطب . وقد اهتم فى بحوثه بموضوع السيكوفيزيقا . وأهم كتبه «دراسة اللمس فسيولوجيا وتشريحيا » أصدره عام ١٨٣٤م ، « اللمس والحساسية العامة » أصدره عام ١٨٤٦م .

وإسهامات فبر بالاشتراك مع فخنر الذى سنعرض له توا فى مجال علم النفس التجريبى عديدة وعلى رأسها دراسة السيكوفيزيقا Psychophysics

والسيكوفيزيقا هى لفظ للدلالة على العلاقات بين الماديات أى المثيرات الحسية وبين اللاماديات أى الإحساسات الشعورية بهذه المثيرات .

ومن أهم التعبيرات المستخدمة فى مجال السيكوفيزيقا تعبير العتبة الفارقة Differential Limen (DL) وتسمى أحيانا أدنى فرق ملاحظ Just noticable Difference (JND) وتعنى العتبة الفارقة أو أدنى فرق ملاحظ أقل نقطة إحساسية عندها يشعر المفحوص بأن ثمة تغيرا فى إحساسه بشدة هذا المثير سواء كان هذا التغير بالزيادة أو النقصان . (لاحظ أن تعبير العتبة الفارقة أو أدنى فرق ملاحظ تعبيران مترادفان) .

وهناك قانون بخصوص العتبة الفارقة أو أدنى فرق ملاحظ نوضحه فى السياق التالى :

لنعط مثالا عمليا يبين أن أدنى فرق ملاحظ الذى هو تعبير مرادف للعتبة الفارقة فى تجربة افتراضية تقوم على أن يجلس المفحوص فى حجرة مظلمة لعدة دقائق حتى يتكيف مع الظلام ، ثم نضيء لمبة ذات قوة ٦٠ وات ، ثم فى الخطوة الثانية نضيء لمبة أخرى من نفس القوة أى ٦٠ وات كذلك ، بحيث تكون قوة الإضاءة فى الغرفة ١٢٠ وات . ثم فى الخطوة الثالثة نضيء لمبة ثالثة من قوة ٦٠ وات أيضا بحيث تصبح قوة الإضاءة فى الغرفة ١٨٠ وات (٦٠ + ٦٠ + ٦٠) . وفى الخطوة الرابعة نضيف لمبة من قوة ٦٠ وات بحيث تصبح الإضاءة فى الغرفة بقوة ٢٤٠ وات (٦٠ + ٦٠ + ٦٠ + ٦٠) وفى هذه الخطوات الأربع من التوقع أن يشعر المفحوص بكل زيادة فى قوة المثير الضوئى ، أما إذا أضفنا كخطوة خامسة لمبة ذات قوة ٦٠ وات يعنى تصبح الإضاءة ٣٠٠ وات (٦٠ × ٥) فإن المفحوص لا يلاحظ الفرق عند الزيادة الخامسة ، وإذا زدنا لمبة سادسة أو سابعة من نفس القوة فإن المفحوص سيجد صعوبة فى ملاحظة الفرق أو ربما لا يلاحظ إطلاقا . معنى ذلك أن المفحوص يلاحظ الزيادة فى شدة المثير الضوئى فى المرات الأولى بوضوح ولكنه فى

المرات الأخيرة لن يلاحظ ذلك . وعلى هذا فإن نفس الزيادة فى المثير الضوئى لا تؤدى إلى نفس الإحساس بالفرق كلما تدرجنا فى زيادة شدة المثير أى أن المفحوص يلاحظ الفرق فى الزيادات الأولى ، ولكنه لا يلاحظه فى الزيادات الأخيرة .

وقد وضع " فبر " قانونا يصف العلاقة الرياضية بين JND أدنى أو أقل فرق ملاحظ وبين المثير الأصلى . ويصف هذا القانون النسبية فى التمييز relative dis-crimnalility (أى اختلاف التمييز لنفس الزيادة في المثير فى المراحل المختلفة من هذه الزيادة) وتوصل إلى علاقة رياضية بين أقل أو أدنى فرق ملاحظ JND وبين شدة المثير وعبر عن ذلك فى قانون منطوقة كالآتى :

$$\frac{\Delta 1}{1} = K$$

حيث إن

$\Delta 1$ = التغير فى مقدار المثير الأصلى الذى يمكن ملاحظته ؛ أو التغير فى شدة المثير المحدثة لتغير فى إحساس المفحوص أو التغير فى شدة المثير المحدثة لأدنى فرق ملاحظ .

1 = شدة المثير أو قوة المثير أو ما نسميه المثير المعيارى

K = ثابت يرجع إلى المفحوص أو ما يمكن أن نسميه مشروطية الإحساس ويسمى ثابت فبر .

وتشير مراجع علم النفس التجريبى إلى أن ثابت فبر يبلغ ٠٢, فى حالة المثيرات الوزنية ، معنى ذلك أن المفحوص عندما يطلب منه أن يميز بين وزنتين إحداهما ١٠٠ جرام كمثير معيارى أو قياسى فإن المثير المقارن يجب أن يكون فى هذه الحالة ١٠٢ جرام أو أكثر ، أو أن يكون ٩٨ جرام جراماً أو أقل . كما يشار إلى أن ثابت وبر يبلغ ٠١٦, فى حالة المثيرات الضوئية ، وكذلك يبلغ ٣٣, فى حالة المثيرات الصوتية .

وفيما يلى بعض الأمثلة التوضيحية

مثال (١) لمثيرات وزنية (بالجرام)

1 شدة المثير	Δ 1 التغير فى شدة المثير	K ثابت وبر	ملحوظة
٣٠٠	٦	,٠٢	يقصد بالتغير فى شدة المثير الزيادة أو النقصان
٢٠٠	٤	,٠٢	
١٠٠	٢	,٠٢	
٥٠	١	,٠٢	

مثال (٢) لمثيرات صوتية (بالديسبل)

1 شدة المثير	Δ 1 التغير فى شدة المثير	K ثابت وبر	ملحوظة
١٠	٣,٣	,٣٣	التغير فى شدة المثير يكون بالزيادة أو بالنقصان
٢٠	٦,٦	,٣٣	
٣٠	٩,٩	,٣٣	
٤٠	١٣,٢	,٣٣	
٥٠	١٦,٥	,٣٣	
٦٠	١٩,٥	,٣٣	
٧٠	٢٣,١	,٣٣	
٨٠	٢٦,٤	,٣٣	
٩٠	٢٩,٧	,٣٣	
١٠٠	٣٣	,٣٣	

ملحوظة : الديسبل وحدة لقياس الصوت ، فمثلا الحد الأدنى لسماع صوت هو فى حدود ١٠ أو ١٥ ديسبل وصوت حفيف الشجر حوالى ٢٠ ديسبل وصوت الحديث العادى حوالى ٥٠ ديسبل وهكذا .

ولكن ثمة سؤال مركزى فى هذا المقام وهو : هل ثابت " وبر " ثابت ودقيق فعلا ؟ ذلك لأن تقديرات المفحوصين لإحساساتهم تخضع للعديد من الأخطاء مثل الخطأ الثابت والتقديرات الذاتية التي تتأثر بحالة المفحوص الجسمية والنفسية لكن يمكن القول بوجه عام أنه إذا كانت التجربة المختبرية خالية قدر الإمكان من أخطاء التجريب فإن ثابت " فبر " موثوق ويعتمد عليه ولكن بشرط أن تكون شدة المثير فى مجال إحساس المفحوص أى تتجاوز العتبة المطلقة أو الدنيا ، وكذلك تقل عن العتبة القصوى ، أى أن القانون الخاص بثابت " وبر " لا يتحقق إذا كانت شدة المثير منخفضة جدا ، أو كانت شدة المثير مرتفعة جدا .

كذلك اهتم « فبر » بدراسة الإحساس حيث يرى أن اللمس لا يوجد إلا على الجلد ، بينما الحساسية العامة توجد على الجلد وعلى مناطق داخلية أخرى فى الجسم . وقد لاحظ « فبر » كذلك أن الأعصاب الحسية لا تغذى سطح الجسم فحسب ، بل تغذى جانبا كبيراً من داخل الجسم كذلك ، وتتضمن الحساسية العامة الألم والأحاسيس الواردة من العضلات ، بينما اللمس فى حد ذاته يشمل الإحساس بالضغط والحرارة والمكان . وكان يرى أن الإحساس بالمكان أقل أولية كما أنه يختلف عن الإحساس بالضغط ، وأنه يعتمد إلى حد ما علي نشاط العقل .

كما كان « فبر » شديد الاهتمام بدراسة الحرارة وقدم عدة ملاحظات أصيلة فى هذا المقام ، فكان يعد الحرارة والبرودة طرفين متناقضين فى سلسلة حسية واحدة مشابهة للأبيض والأسود فى مجال الإبصار اللونى . كما توفر على دراسة التجربة الشهيرة التى تتعلق بدراسة تناقض الإحساس بالحرارة حيث توضع اليدان فى ماء بارد بعد أن تكون إحداهما وضعت فى ماء ساخن ، وهذا يؤدى بالتالى إلى تناقض أو تداخل الإحساس بالحرارة والبرودة - وما تزال هذه التجربة الكلاسكية تدرس للطلاب فى مختبرات علم النفس .

ومما يجدر ذكره اهتمام « فبر » بدراسة الإحساس اللمسى مختبرياً ، وذلك عن طريق ما أسماه الفرجار الحسى أو المجس الثنائى aethesiometer وهذه التجربة هى الأخرى كلاسيكية فى المختبر النفسى حيث تحاول التجربة تحديد البعد الأدنى الذى يجب أن تكون عليه نقطتان على سطح الجلد ليشعر المفحوص (الذى يلبس نظارة إعتام) بأنهما نقطتان وليستا نقطة نقطة واحدة . وقد تبين له أن التمييز الحسى الذى يتمثل فى إدراك هاتين النقطتين يختلف باختلاف مناطق الجلد المختلفة حيث تبين أن سطح الجلد فى منطقة أطراف الأصابع تبلغ قدرتها على التمييز أكثر بكثير من منطقة سطح الجلد فى الجزء الأعلى من الذراع .

ويتبين من العرض السابق أنه يحق لمؤرخ علم النفس أن يعد « فبر » واحداً من كبار مؤسسى علم النفس التجريبى الحديث ، وذلك بسبب الموضوعات التى طرقها والمناهج البحثية البالغة الدقة التى اتخذها .

« جوستاف فخنر » Fechner (١٨٠١ / ١٨٨٧م)

ألمانى فيلسوف وعالم ، التحق بجامعة « ليبزج » لدراسة الطب عام ١٨١٧م حيث درس على يد « فبر » الفسيولوجيا . وكان « فخنر » طالبا متفوقا متميزا فى تلك الدروس ، وكان قادرا على قراءة مراجع الفسيولوجيا بمفرده ، وبعد حصوله على درجته فى الطب ، أكمل دراسته فى مجال الفيزياء والرياضيات ، كما عمل أثناء دراسته فى ترجمة الكتب الفرنسية فى مجال الفيزياء والكيمياء إلى اللغة الألمانية مما زاد من معارفه الفيزيائية .

عين أستاذا فى « ليبزج » حيث قضى بقية حياته يدرس « الفيزياء » ، وقد ترك العمل مدة أربع سنوات من ١٨٣٩ إلى ١٨٤٣ إذ أصيب بمرض فى عينيه بسبب تحديقه فى قرص الشمس أثناء دراسته لتجربة الأثر الباقى . وفى هذه المدة كانت والدته تقرأ عليه الكتب ثم عاد بعد الشفاء إلى عمله .

أهم كتبه على الإطلاق « مبادئ السيكوفيزيقا » أصدره عام ١٨٦٠م والذى يعده مؤرخ علم النفس المدقق حدثا هاما فى تاريخ علم النفس التجريبى ، يتساوى فى أهميته مع إنشاء مختبر « فونت » عام ١٨٧٩م ، ذلك أن « فخنز » توصل فيه إلى عدد من القوانين الرياضية فى مجال السيكوفيزيقا ، وذلك لاتباعه مجموعة من المناهج المضبوطة فى علم النفس .

هذا وأصدر « فخنر » كتابا عام ١٨٥١ أسماه « زندأفستا Zend Avesta » (وزندافستا عبارة تعنى أمور السماء وما بعد الموت وهى عبارة ذات أصل فارسى) وقد ظهرت فى هذا الكتاب آراء « فخنر » ليس لكونه عالماً ولكن لكونه فيلسوفاً . وقد ذهب فى هذا الكتاب إلى أن الميتافيزيقا علم حق ، يقوم على حاجة فينا للإيمان بمبدأ عدل وخير ، وأن الدليل الأقوى على وجود مبدأ العدل والخير هو أننا نبحث عنه ، ولا يسعنا إلا أن نبحث عنه ثم إن معيار الإيمان فائدته العملية ، ولهذا الإيمان فائدة كبرى ، ومنهج الميتافيزيقا عند « فخنر » هو تصور العالم على مثال وجداننا ، فكما أن موضوع العلم هو الطبيعة المنظورة المعلومة بالملاحظة والاستقراء ، فكذلك موضوع الميتافيزيقا باطن الطبيعة ويدرك بالحدس الباطن ، هذا الحدس الباطن يظهرنا على أن الوجدان هو عبارة عن تقدم أفعال من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل ، وأن الوجدان هو أيضا كثرة أفعال فى وحدة غير متجزئة ، فالعالم - من ثمة - وحدة حاصلة على الخصائص نفسها (أى التوحد وعدم التجزئة) ، إلا أن العالم غير محدود ، فالعالم وجدان واسع جدا ترعاه العناية الإلهية . وكل وجدان إنسانى فردى رغم تميزه عن غيره فى الظاهر فهو مظهر من الوجدان الكلى ، أما الكواكب فهى ملائكة السماء ، وأما الأرض فهى متنفس لهذا الوجدان الكلى ، ذلك أن الأرض كل منظم بفصولها المطردة ، وأجزاؤها نفوس الموجودات الأرضية من نبات وحيوان وإنسان ، ونفوس الموجودات هذه هى بالنسبة للأرض مثل أفكارنا بالنسبة لأنفسنا .

وهذا المذهب الفلسفى مذهب غريب غامض ، وهو ليس أكثر من رؤية شخصية يشرح فيها « فخنر » علاقة الإنسان بالعالم الذى يعيش فيه ، وقد أوردناه

لنبين تنوع اهتمامات عالم كبير مثل « فخنر » درس الطب والتشريح والفسيولوجيا والفيزياء والرياضيات ، ولكنه مع ذلك أقبل على قراءات موسعة فى الفلسفة بحيث أدلى بدلوه فيها .

أما إنجاز « فخنر » الحقيقى فى علم النفس فهو فى مجال القياس الكمى للأمور النفسية واعتلاء الجسر الذى يربط بين علم النفس والعلوم الطبيعية وهو «السيكوفيزيقا » ، وقد أورد فى كتابه « مبادئ السيكوفيزيقا » الذى أشرنا إليه عرضا لبحوثه تلك ، ومن أهم القوانين التي توصل إليها « فخنر » قانون يربط بين المثير والإحساس بمعادلة رياضية ، ولعل القانون هو أول قانون - فيما نعلم - يحدد العلاقة بين متغيرين فى علم النفس ويحكمها رياضيا .

وطبقا لقانون « فخنر » الذى يسمى أحيانا قانون « فبر - فخنر » فإن شدة الإحساس تتناسب تناسبا طرديا مع لوغاريتم شدة المثير .

وقد تصور « فخنر » أن أقل أو أدنى فرق ملاحظ JND ، وهو تسمية مرادفة للعتبة الفارقة ، يمكن أن يمثل تدرجات أو نقاطا أو مستويات intervals متساوية على مقياس نفسانى إحساسى ،نبينها كما يلى :

أ - أن نقطة الصفر أو نقطة البداية ، أى النقطة الأولى على هذا المقياس المدرج هى العتبة المطلقة أو الدنيا والتي تعنى الحد الأدنى للمثير الذى عنده يشعر المفحوص بأقل قدر من الإحساس بهذا المثير ، وهذا المثير قد يكون سمعيا أو صوتياً .

ب - أن النقطة الثانية على هذا المقياس المدرج هى قيمة واحد أدنى فرق ملاحظ JND أو عتبة فارقة واحدة مضافة إلى العتبة المطلقة ، أى = العتبة المطلقة+ واحد فرق ملاحظ (1 JND)

جـ - أن النقطة الثالثة على هذا المقياس المدرج هى قيمتان لأدنى فرق ملاحظ JND أو عتبتان فارقتان مضافتان إلى العتبة المطلقة أى = العتبة المطلقة + اثنان أدنى فرق ملاحظ (2 JND)

جـ - أن النقطة الرابعة على هذا المقياس المدرج هى ثلاث قيم لأدنى فرق ملاحظ JND أو ثلاث عتبات فارقة مضافة إلى العتبة المطلقة أى = العتبة المطلقة+ ٢ أدنى فرق ملاحظ (3 JND)

معنى ذلك أن "فخنر" يرى أن ثمة زيادة فى وحدات الإحساس بالمثير وأن هذه الزيادة تتحرك بمعدل عتبة فارقة أو واحد أدنى فرق ملاحظ (1 JND) فى كل مرة، كما أنه يمكن تمثيل هذه الزيادة على مقياس متدرج . والأمر الأساسى الذى لاحظه "فخنر" أن هذه الزيادة المطردة فى وحدات الإحساس بالمثير والتى تمثل على مقياس متدرج لا تتساوى مع الزيادة الفعلية فى المثير . وبقول آخر أن الزيادة فى شدة المثير لا تتساوى مع الزيادة فى الإحساس به . بل إن الزيادة الفعلية فى المثير تزيد فعلا عن الإحساس به ، وافترض فخنر بناء على ذلك أن الزيادة فى المثير تؤدى إلى زيادة فى الإحساس بما يساوى لوغاريتم المثير وليس بما يساوى الزيادة فى المثير .

ونلخص قانون "فخنر" فنقول أن الإحساس الذى تحدثه الزيادة فى مثير معين لا يساوى الزيادة فى شدة المثير ولكن هذا الإحساس يساوى لوغاريتم المثير"

وفيما يلى مثال افتراضى توضيحى باستخدام مثير صوتى مقدرة قوته بالديسبل

عدد وحدات الفرق الملاحظ فوق العتبة المطلقة الدنيا JNDS	شدة المثير 1	المقدار الثابت K	حد الفرق الملاحظ JND = 1+K	القيمة اللوغاريتمية لشدة المثير Log 1
صفر	١٠	٣,٣٠	١٣,٣٠	١
١	١٣,٣٠	٤,٣٩	١٧,٦٩	١,١٢
٢	١٧,٦٩	٥,٨٤	٢٣,٥٣	١,٢٥
٣	٢٣,٥٣	٧,٧٦	٣١,٢٩	١,٣٧
٤	٣١,٢٩	١٠,٣٣	٤١,٦٢	١,٥٠
٥	٤١,٦٢	١٣,٧٣	٥٥,٣٥	١,٦٢
٦	٥٥,٣٥	١٨,٢٧	٧٣,٦٢	١,٧٤
٧	٧٣,٦٢	٢٤,٢٩	٧٩,٩١	١,٨٧
٨	٩٧,٩١	٣٢,٣١	١٣٠,٢٢	١,٩٩
٩	١٣٠,٢٢	٤٢,٩٧	١٧٣,١٩	٢,١١
١٠	١٧٣,١٩	٥٧,١٥	٢٣٠,٤٣	٢,٢٤

وإسهامات " فخنر " فى مجال "السيكوفيزيقا " كثيرة ، منها اهتمامه بدراسة خلط اللونين الأبيض والأسود وما ينتج عن هذا الخلط من درجات اللون الرمادى المختلفة ، هذا إلى جانب اكتشافه ما يسمى « تناقض فخنر Fechner Paradox » وهو زيادة لمعان شكل من الأشكال عندما تغلق إحدى العينين فجأة ونراه بعين واحدة بعد أن كنا نراه بكلتا العينين .

وعلى هذا يمكن القول : إن « فخنر » كان من أوائل العلماء الذين تصدوا لدراسة النواحى النفسية دراسة تجريبية رغم أنه قد ساد العصر الذى عاش فيه «فخنر » سيطرة رأى الفيلسوف الألمانى الكبير « كنط » ، هذا الرأى الذى مؤداه : أن موضوع علم النفس لا مضمون له ولا يمكن دراسته تجريبيا ، وأن العقل لا يمكن

إخضاعه للدراسة المختبرية ، كما لا يمكن التوصل إلى قوانين بشأنه ، وقد بين «فخنر » - رغم نفوذ « كنط » على الحياة العلمية فى ألمانيا آنذاك - خطأ هذه الافتراضات وهنا تكمن عظمته .

« رودلف لوتزى » Lotze (١٨١٧ / ١٨٨١م)

ألمانى - درس الطب فى « ليبزج » وتدرب على يد « فبر » و « فخنر » على دراسة السيكوفيزيقا ، كما درس الفلسفة ، ثم مارس الطب لفترة يسيرة ، ثم عمل فى « ليبزج » فى إحدى وظائف التدريس ، وفى عام ١٨٤٤م خلف « هربارت » على كرسى الفلسفة بجامعة "جوتنجن" ، وهو لم يبلغ الثلاثين بعد ، وبقى فى هذا الكرسى حتى خلفه « جورج موللر » ، ولا يعد « لوتزى » مؤسسا أو مجددا لحركة من حركات علم النفس التجريبى فى ألمانيا ولكن دراسته وكتاباته أثرت على عدد من العلماء الشبان الألمان ، منهم « جورج موللر » .

أصدر فى عام ١٨٥٢م كتابا بعنوان « علم النفس الطبى أو فسيولوجيا الأرواح» حاول فيه المزج بين العلم والفلسفة رغم أنه يميل إلى الجانب الفلسفى ، وفى محاولته هذه قدم العديد من المعلومات الفسيولوجية للبرهنة على الصلة بين ما هو فسيولوجى وبين ما هو نفسى ، وأشار إلى أن الأحداث المحيطة بنا فى البيئة تثير الحواس الداخلية التى تتصل بالخلايا والتى تتصل بالمركز الرئيسى وهو الروح ، والجهاز العصبى فى نظر « لوتزى » هو موجه آلى لحركات الكائن الحى ، كذلك رأى أن الإحساسات هى خبرات يتم إحداثها بواسطة المركز أو الروح .

وكذلك أشار « لوتزى » إلى أن الخبرة الحسية هى أمور كيفية وليست كمية ، ومثال ذلك أن إدراك المسافة هو عملية تقوم عن طريق « مادة خام » يستقبلها الفرد خلال جهازه العصبى ، ويتم تفسير هذه المادة الخام وتأويلها على أساس الخبرة السابقة . وهكذا تكون العملية كلها بمثابة « حدس تجريبى للمسافة ».

وقد عارض « لوتزى » المادية والتفسيرات الميكانيكية للعمليات النفسية ، إذ

يرى أن المركز الرئيسى أو الروح تهيمن على نشاط العمليات العقلية والحسية ، وهذه الهيمنة هى أساس النشاط النفسى فى نظره .

ومهما يكن من أمر فإن «لوتزى» انشغل بتفسير النشاط النفسى والجسمى متجاوبا بذلك مع طبيعة العصر الذى انشغل فيه علماء النفس الألمان بتفسير العلاقة بين النفس والجسم .

"هرمان هلمهولتز" Helmoholtz (١٨٢١ / ١٨٩٤م)

ألمانى – باحث مبرز فى الفسيولوجيا والفيزياء وعلم النفس وهو واحد من شوامخ العلماء فى القرن التاسع عشر ، وبالرغم من أن علم النفس يأتى فى الترتيب الثالث لاهتماماته ، إلا أنه مع « فخنر » و « وفونت » يشكلون « مثلث الريادة » فى علم النفس التجريبى .

درس الطب فى « برلين » وعمل جراحا فى الجيش لمدة سبع سنوات ، وأثناء تلك السنوات تابع دراساته وبحوثه فى الفيزياء والفسيولوجيا ، وبعد ترك الجيش عمل فى وظائف الأستاذية فى جامعات « كونسبرج » و « بون » و « هيدلبرج » و «برلين» حيث كان أستاذا للفسيولوجيا .

من أهم أعماله العلمية كتابه عن « فسيولوجيا البصريات » ، وهو فى ثلاثة أجزاء أصدره فى المدة من ١٨٥٦ إلى ١٨٦٦م . ولهذا الكتاب أهمية فى مجال البصريات فقد ترجم إلى الإنجليزية بعد ٦٠ سنة من صدوره ، هذا إلى جانب أنه اخترع أداة تستخدم للفحص المجهرى للعين ، وقد نشر كتابا عام ١٨٦٣م بعنوان «الإحساس بالنغم » ضمنه عديدا من بحوثه ، إلى جانب مجموعة من الدراسات النظرية القيمة ، وله عديد من المقالات فى موضوعات متنوعة مثل : الأثر الباقى ، عمي الألوان ، حركة العين .

وقد اهتم أيضا بدراسة زمن الرجع عند الإنسان حيث توصل إلى أن ثمة فروقا كبيرة بين الأفراد فى زمن الرجع إلى جانب وجود فروق فى زمن الرجع عند الفرد نفسه طبقا للمواقف النفسية المختلفة .

واهتم كذلك بدراسة تحديد سرعة الانتقال فى الأعصاب الحسية ، فقد كان " هلمهولتز" ينبه المفحوص فى أصبع القدم وفى جزء من الفخذ وفى اليد ويلاحظ الفروق فى زمن الاستجابة فى تلك المناطق ، ويتبين له أن سرعة الانتقال عبر العصب تتراوح بين ٥٠ ، ١٠٠ قدم فى الثانية عند الإنسان . وظهر كذلك أن جسم الإنسان لا يطيع عقله فى التو واللحظة ، فالحركة تتبع الفكرة بدلا من حدوثهما فى وقت واحد كما ساد الاعتقاد .

وتعد نظرية « هلمهولتز » فى الرؤية - أهم إنجازاته فى مجال علم النفس التجريبى الفسيولوجى ، حيث تفترض هذه النظرية أن هناك ثلاثة مستقبلات لونية أساسية فى العين وهى تتعلق بأولويات فيزيائية لألوان ثلاثة هى الأحمر والأخضر والأزرق ، وكل مستقبل من هذه المستقبلات الثلاثة يمكن أن يستثار بأى موجة ضوئية مهما كان طولها ، ولكن هذا المستقبل لا يستجيب إلا لموجة ذات طول معين هى الأكثر تأثيرا فى هذا المستقبل ، واللون الأبيض يعد بمثابة استثارة متزامنة لكل المستقبلات الثلاثة ، كما أن إحساس الشخص باللون يتحدد بسبب عمل المخروطات أو بسبب خلط اللونين ، فمثلا اللون الأصفر خليط من الأحمر والأخضر ، ويكون عمى الألوان بسبب عدم وجود المخروطات نهائيا حيث يكون عمى الألوان كاملا أو قد يكون عمى الألوان جزئيا بسبب عدم وجود عملية الخلط بين لونين معينين .

وقد تبين خلال الستينيات من هذا القرن دقة هذه النظرية ، إذ اكتشفت ثلاثة أنواع من المخروطات يستجيب بعضها لموجات اللون الأحمر وبعضها لموجات اللون الأخضر وبعضها لموجات اللون الأزرق .

كما أسهم « هلمهولتز » فى تقديم نظرية عن السمع تقوم على فكرة الرنين resonance ترى هذه النظرية أن الموجات المختلفة من الصوت إنما تتحدد بوجود ألياف قصيرة للغشاء القاعدى لطبلة الأذن هذه الألياف القصيرة مهيأة لالتقاط درجات الصوت المرتفعة . وهناك ألياف طويلة مهيأة لالتقاط درجات الصوت المنخفضة ، أما الألياف الموجودة فى وسط غشاء الطبلة فهى مهيأة لالتقاط درجات

الصوت المتوسطة . وعلي هذا فالإحساس بشدة الصوت تحدده الخلايا العصبية فى الأماكن المختلفة من غشاء الطبلة وحساسية كل مجموعة من هذه الخلايا لدرجة من درجات الصوت .

ويمكن القول بأن « هلمهولتز » يعد من مؤسسى علم النفس التجريبى الحديث ، حيث درس مجالات متعددة وأقام « جسراً علميا » بين علم وظائف الأعضاء وعلم النفس ، واكتشف عددا كبيرا من المعارف ، وألف واحدا من أعظم المراجع ، فحق لمؤرخ علم النفس أن يعده من أبرز شخصيات علم النفس الحديث.

« أولد هرنج » Hering (١٨٣٤ / ١٩١٨م)

ألمانى - درس الطب فى « ليبزج » وتأثر بكل من « فبر » و « فخنر » وعمل أستاذا للفسيولوجيا بجامعات « فينا » و « براجو » و « ليبزج » - ويعد « هرنج » أحد العلماء الذين أسهموا فى تأسيس علم النفس التجريبى على أسس فسيولوجية. أهم كتبه « إسهامات فى الفسيولوجيا » أصدره فى المدة من ١٨٦١ إلى ١٨٦٤م .

وقد أشار فى دراساته إلى نقط خلاف بينه وبين « هلمهولتز » - الذى كان معاصرا له - حيث أشار إلى أن إدراك المسافة هو أمر ولادى وليس مكتسبا خلافا لما ذهب إليه « هلمهولتز » فى دراساته عن فسيولوجيا الإبصار . وقد اهتم فى منهجه البحثى بالملاحظة والوصف الذاتى للخبرات الحسية ، واتجاهه « السليقى nativist » هذا أثر بدوره على « ستمف » وعلى الظاهراتية والجشطلت .

كما اشتهر بنظرية فى الرؤية خالف فيها « هلمهولتز » وتدور الفكرة الأساسية فى نظرية « هرنج » على أن هناك ثلاثة ميكانزمات تتحكم فى رؤية الألوان ، وكل واحد من هذه الميكانزمات الثلاثة يستجيب بطريقة مختلفة لشدة الضوء وللموجات الضوئية ، فمثلا ميكانزم الأسود سالب ، والأبيض موجب ، يستجيب إيجابيا للضوء الأبيض ويستجيب سلبيا عند غياب هذا الضوء . والميكانزم الثانى الأحمر موجب والأخضر سالب يستجيب إيجابيا للأحمر وسلبيا للأخضر ،

والميكانزم الثالث أزرق سالب وأصفر موجب ، يستجيب سلبيا للأزرق وإيجابيا للأصفر . هذه الاستجابات تكون بسبب بناء أو هدم الكيماويات الشبكية ، حيث إن الألوان الأبيض والأصفر والأحمر ، تؤدى إلى استجابة بناء لهذه الكيماويات ، بينما الألوان الأسود والأزرق والأخضر تؤدى إلى استجابة هدم لهذه الكيماويات . ويرى « هرنج » : أن جميع احتمالات الإحساسات اللونية المختلفة هى نتيجة خلط أو تجميع من هذه الميكانزمات اللونية الثلاثة.

كذلك اهتم « هرنج » بدراسة الرؤية فى العمق حيث أعد أسلوبا معمليا لدراسة رؤية العمق باستخدام كلتا العينين أو باستخدام عين واحدة ، ويتطلب إجراء هذه التجربة المعملية أن ينظر المفحوص من خلال أنبوب ويركز نظره على نقطة معينة داخل هذا الأنبوب ، ويقوم الفاحص بإسقاط كرات صغيرة أمام وخلف هذه النقطة المعينة ويطلب من المفحوص تحديد المسافة التى تبعدها كل كرة خلف أو أمام تلك النقطة المعينة .

وكذلك اشتهر « خداع هرنج » وهو أحد الخداعات الإدراكية الهندسية ، وفيه نرسم خطين أفقيين متوازيين ، وعند نقطة فى وسط هذين الخطين نرسم خطوطا هندسية متقاربة وملتقية عند هذه النقطة ، وعند النظر إلى هذا الشكل يحدث خداع يظهر بسببه الخطان المتوازيان وكأن بهما انبعاجا إلى الخارج .

كما اشتهر « هرنج » بإعداده « الألوان الرمادية » وهى مجموعة تتكون من خمسين لوحة مرتبة بحيث تكون سلسلة تبدأ من الأبيض الناصع إلى الأسود القاتم - ويبين فيها تدرج الألوان .

« جورج موللر » Muller (١٨٥٠ / ١٩٣٤م)

ألمانى درس التاريخ والفلسفة فى « ليبزج » و « جوتنجن » حيث حصل على الدكتوراه من « جوتنجن » تحت إشراف « لوتزى » وعمل معظم حياته « بجوتنجن » ومن أشهر تلاميذه « كولبة » (يبدو أن كرسى الأستاذية بجامعة « جوتنجن » كان له

أهمية خاصة حيث تعاقب عليه ثلاثة من الكبار : شغله « هربارت » ثماني سنوات ، وشغله « لوتزى » سبعاً وثلاثين سنة ، وشغله موللر أربعين سنه) .

ويعد « موللر » أحد مؤسسى علم النفس التجريبى فقد أسهم إسهاما رئيسيا فى دراسات السيكوفيزيقا والذاكرة والإدراك . وكان عالما تجريبيا صرفا ، انصرف إلى العمل التجريبى أكثر من التاليف ، ومن أهم كتبه « مواقف وحقائق عن الطرق السيكوفيزيقية » أصدره عام ١٩٠٣ م ، وأشار فيه إلى ما اعتبره مسلمة أساسية فى « السيكوفيزيقا » عن العلاقة بين الإحساس والمثير العصبى ، وهذه المسلمة تدور حول مبدأ المماثلة isomorphy الذى اتخذته مدرسة الجشطلت واحداً من مبادئها فيما بعد .

وقد بدأت دراسات « موللر » عن الذاكرة من حيث انتهى العالم الألمانى الكبير « إبنجهاوس » - الذى نعرض له فى فصل قادم - كما أن « موللر » حسّن فى أساليب دراسة الذاكرة باستخدام أدوات تسمح بسرعات متفاوتة لعرض المادة المطلوب حفظها وباستخدام قواعد فى اختيار المقاطع . وتبين من هذه الدراسات أن اتجاه الشخص الذى يقوم بالحفظ أمر عظيم الأهمية ، فالمزم على الحفظ عامل أساسى فى الإسراع ، أما مجرد التكرار دون مثل هذا المزم فلا فائدة منه ، كما وجد أن مقدمة ومؤخرة القائمة أسرع فى الحفظ من وسطها .

كذلك وجد أنه عندما يوجد فى المادة المطلوب تعلمها ترابطان متساويان فى القوة ولكن أحدهما أقدم من الآخر ، فإن التكرار يثبت الأقدم أكثر مما يثبت الأحدث . ، كما أنه من الأوفر أن تحفظ المادة كلا (أى بقراءة المادة كلها من البداية للنهاية دون تجزئة) بدلا من أن تحفظ على أجزاء (أى بتقسيمها إلى أجزاء وحفظ كل جزء على حدة قبل الانتقال إلى الجزء الذى يليه) .

ومن أهم النتائج التى توصل إليها « موللر » أنه حتى فى تجارب تعلم الكلمات « عديمة المعنى » فإن عملية التعلم ليست آلية ميكانيكية بل إن المفحوص يقوم بعملية تنظيم واع ونشط أثناء عملية التعلم .

كذلك اشتهر موللر بالخداع الإدراكى ، المعروف لدى طلاب علم النفس بخداع « موللر - لاير » حيث يعرض على المفحوص خطين أفقيين متساويين فى الطول متوازيين كذلك ورسم على جانبى الخط الأعلى سهمان داخليان وعلى جانبى الخط الأسفل سهمان خارجيان بحيث يبدو للمفحوص الخط الأسفل وكأنه أطول من الخط الأعلى .

وكان « موللر » شيئا أشبه بمعهد ، وكان المختبر النفسى الذى يعمل به فى «جوتنجن » مختبرا نشيطا ، ومن الدلائل على أهمية « موللر » فى ذلك الوقت أن «كهلر » أحد مؤسسى الجشطلت اتصل به وناقشه حول جدة النظرية الجشطلتية .

« هجو منستريرج » Munsterberg (١٨٦٣ / ١٩١٦م)

ألمانى - رائد علم النفس التطبيقى ، حصل على الدكتوراه عام ١٨٨٥م من «ليبزج » تحت إشراف « فونت » ، كما درس الطب ، واتجه إلى بحوث حول موضوع الإرادة ولكن « فونت » تحفظ على مثل هذه الدراسات لكنه استمر فيها ضاربا عرض الحائط بآراء « فونت » ، ونشر كتابا صغيرا عن الإرادة عام ١٨٨٨م .

وعمل أستاذا بجامعة « فيبورج » حيث أسس مختبراً ، وبدأ فى نشر بحوث عن إدراك الزمن والانتباه والتعلم والتذكر ، ولقيت هذه البحوث اهتماما من الوسط السيكولوجى .

قابل عالم النفس الأمريكى الشهير « وليم جيمس » فى المؤتمر الدولى الأول لعلم النفس الذى عقد فى « باريس » عام ١٨٨٩ م وبعدها استدعاه « وليم جيمس » إلى أمريكا عام ١٨٩٢ م ليتولى الإشراف على مختبر علم النفس فى جامعة «هارفارد » حيث قام بهذه المهمة خير قيام . ثم عاد إلى جامعته « فريبورج » بألمانيا عام ١٨٩٥ م ، وفى عام ١٨٩٧ م عاد إلى جامعة « هارفارد » حيث قضى بقية حياته عدا زيارات متقطعة لأوربا .

والخاصية التي تميز « منستريرج » هى أنه كان صاحب رؤية بالغة العمق

والاتساع فى علم النفس ، حيث كانت رؤيته أن علم النفس يجب أن يكون له جوانب تطبيقية فى المجالات الاجتماعية والتجارية والتربوية ، ورغم أنه كان من الناحية الاسمية من رجالات « فونت » ومدرسته البنائية إلا أنه اندمج فى علم النفس الأمريكى بما ساد فيه من ا تجاهات « وظيفية ».

وأثناء وجوده فى أمريكا ، اهتم بدراسة اللغة الإنجليزية والكتابة بها ، وفى السنوات الأولى من القرن العشرين عد المتحدث باسم العلاقات الألمانية الأمريكية - الطيبة فى ذلك الوقت - ولقى الكثير من مظاهر التكريم الرسمى من ألمانيا ومن أمريكا ، ولكن ما لبث أن تغيرت الرياح على غير ما يهوى عندما ظهرت ألمانيا فى صورة الدولة المعتدية وهى تدخل الحرب العالمية الأولى ، وكان « منستربرج » هدفا لحملات دعائية على أساس أنه رمز للفطرسة الألمانية ، ولعل هذا كان من أسباب مرضه المفاجئ وموته عام ١٩١٦ م قبل أن تدخل أمريكا الحرب ضد ألمانيا بعام واحد .

وهو مثل بعض علماء عصره اعتبر نفسه فيلسوفا واعتبر أن علم النفس هو فى مجال الفلسفة كما اهتم بمفهوم الغرض ، واعتبر أن الغرض أمر أساسى لفهم الكائن الحى ومحاولة هذا الكائن تحقيق أهدافه تحركه إلى ذلك الإرادة .

وقد أنشأ فى « مختبره النفسى » فى « هارفارد » أقساماً لدراسة الإنسان وأقساماً لدراسة الحيوان ، وكان هذا المختبر من أكثر المراكز العلمية إنتاجا ، وكانت مناهجه البحثية تجميعية تربط بين البنائية عند « فونت » وبين علم نفس الفعل عند « برنتانو » ، وكذلك تفسيره لعلم النفس على أنه علم يهتم بدراسة الغرض .

وقد تنوعت كتاباته حيث إنه أصدر كتبا فى معظم مجالات علم النفس التطبيقى ، إذ أصدر عام ١٩١٣ م كتابا بعنوان « علم النفس والصناعة » وأصدر عام ١٩١٦ م كتابا بعنوان « علم النفس العام والتطبيقى » كذلك اهتم بالعلاج النفسى وذلك من واقع خبرته من حيث كونه عالماً نفسياً وطبيباً حيث نشر عام ١٩٠٩ م

دراسات عن العلاج النفسى عارض فيها نظرية « فرويد » فى الدوافع اللاشعورية . كما اهتم بدراسات علم النفس القضائى حيث أعد جهازا بسيطا لكشف الكذب .

ومن هذا يتضح أن « منستربرج » رجل متعدد المواهب والاهتمامات وكان مسهماً أيماً إسهام فى نهضة علم النفس الأمريكى ، إلا أن مؤرخى علم النفس الأمريكيين لا يعطونه ما يستحقه من قدر ، وذلك قد يرجع إلى أن أعماله العلمية كانت من التنوع والاتساع بحيث شابها شىء من السطحية .

وبعد هذا العرض الذى تناولنا فيه باختصار بعض إنجازات العلماء الألمان مؤسسى علم النفس التجريبى الحديث ، ينبغى أن نذكر أنه على رأس هذه الحركة يقف « فونت » مؤسس علم النفس وعميد المدرسة البنائية ، وقد آثرنا تأخيره والحديث عنه عند التعرض للمدرسة البنائية ، وكذلك بجانب هؤلاء الألمان يوجد «أبنجهاوس » صاحب دراسات التذكر وصاحب المقاطع عديمة المعني التى أحدثت انقلابا ، وهو الآخر نؤخر الحديث عنه لنتناوله عضواً رئيسياً فى المدرسة الترابطية.

لماذا ألمانيا ؟

ويبرز سؤال هام فى ذهن قارئ مدقق لتاريخ علم النفس ، وهو: لماذا ألمانيا؟ وتفسير هذا السؤال أنه برز رجال عظام أسهموا فى دفع علم النفس التجريبى خطوات إلى الأمام ، وكان معظم هؤلاء الرجال من الذين تمرسوا بعلم النفس الفسيولوجى وكانوا جميعا من الألمان ، فلماذا الألمان ؟ لماذا تصدت ألمانيا لقيادة حركة علم النفس التجريبى التى بدأت فى القرن التاسع عشر ؟ - ونقول فى الإجابة على هذا السؤال : إن الاهتمام بالبحث العلمى كان موجودا فى دول غرب أوربا فى القرن التاسع عشر ، وكانت هذه الدول - ألمانيا وإنجلترار وفرنسا - تشتعل بالحماسة والتفاؤل لكن كان قدر علم النفس التجريبى أن يظهر فى ألمانيا وليس فى فرنسا أو إنجلترا ، لأن ألمانيا كانت مهيأة أكثر من غيرها لهذا الدور للأسباب الآتية :

* أن الاتجاه الذى كان يسود التفكير الألمانى فى ذلك الوقت هو الاتجاه التجريبى بينما كان يسود الاتجاه التحليلى فى إنجلترا وفرنسا .

* نتيجة سيادة التفكير التجريبى فى ألمانيا زاد الاهتمام بدراسة علم الحياة وعلم الحيوان وعلم وظائف الأعضاء وهى كلها تخدم علم النفس وتتصل به .

* كان الاهتمام بعلم وظائف الأعضاء محدودا فى إنجلترا وفرنسا لأنه لا يتفق مع الاتجاه السائد فيهما .

* كانت الاهتمامات العملية فى فرنسا وإنجلترا محصورة فى المجالات التكميمية (الكيمياء والفيزياء) ، ولكن الاهتمامات العملية فى ألمانيا كانت متنوعة متوسعة ، وشملت مجالات متنوعة مثل التاريخ والمنطق والأدب وعلم الأصوات وفقه اللغة والآثار إلخ .

* كان التفكير الإنجليزى والتفكير الفرنسى يتشكك فى إمكانية دراسة موضوع بالغ التعقيد ، مثل العقل الإنسانى عكس الحال بالنسبة للتفكير الألمانى الذى تقدم متحمسا لهذه المهمة مستخدما الأدوات العلمية لهذه الدراسة .

* أضف إلى هذا كله أن ألمانيا كانت زاخرة بالعديد من الجامعات - بأكثر من إنجلترا وفرنسا - وكان أستاذ الجامعة فى ألمانيا يحظى بالتقدير الأدبى والمادى ، وكان من تقاليد الجامعات الألمانية أن يواصل الأساتذة إجراء بحوثهم أثناء توليهم مناصبهم ، وكانت هذه التقاليد تدفع بالأساتذة إلى تقديم كل ما هو جديد ومثير .

وكان معنى هذا كله تقدما فى معظم مجالات العلوم ومن بينها - لحسن الحظ - مجال علم النفس ، وليس بغريب أن يكون معظم رجال علم النفس التجريبى من أساتذة الجامعات .

وليس معنى هذا أن علم النفس الحديث حرم من جهود علماء آخرين من إنجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا ، فكل من هذه البلاد أسهمت بقدر أو بآخر فى «نهضة علم النفس» ، ولكن حدث التأسيس هو حدث ينسب الفضل فيه لألمانيا .

وفى ختام هذا الفصل يثار سؤال وهو : ما البداية الرسمية لعلم النفس التجريبى ؟ . نقول فى الإجابة على هذا السؤال إنه عند حلول منتصف القرن التاسع عشر طبقت مناهج البحث فى العلوم الطبيعية على البحث فى مجال الظواهر العقلية ، وصاحب ذلك تطوير فى تلك المناهج البحثية ، وإحداث العديد من الأجهزة العلمية المختبرية ، وحررت أمهات الكتب ، وانتشر الاهتمام بعلم النفس. كان هذا بمثابة التمهيد ولكن البداية كانت على يد « فونت » .

ويجمع مؤرخو علم النفس على أن « فونت » هو مؤسس علم النفس من حيث كونه علما أكاديميا وهو كذلك مؤسس المدرسة البنائية ، وكذلك يعد « فونت » عالم النفس التجريبى الأول لأنه أول من أسس مختبرا فى « ليبزج » عام ١٨٧٩ م . وقد شملت دراساته موضوعات متعددة ، مثل الإحساس والإدراك والانتباه وزمن الرجع ، وهذه الموضوعات أصبحت موضوعات رئيسية فى كتب علم النفس التى حررت بعد « فونت » ، ولا تزال حتى الآن تشغل هذه الموضوعات الحيز الأكبر من جسم علم النفس المعاصر .

ولماذا ينسب فضل تأسيس علم النفس إلى « فونت » وليس إلى « فخنر » ؟ مع أن « فخنر » أصدر كتابه العظيم عن « السيكوفيزيقا » عام ١٨٦٠ م قبل سنوات من اشتغال « فونت » بعلم النفس وقبل سنوات طويلة من قيام « فونت » بتأسيس مختبره كما أن جميع المؤرخين يجمعون على عملقة « فخنر » لكن العلماء – رغم ذلك – يرون أن « فونت » هو المؤسس الحقيقى ليس لأنه أول من أنشأ مختبرا فحسب ، ولكن لأنه كان قادرا على تنظيم معلوماته وعرضها ونشرها ، ذلك أنه عندما تولد الأفكار العظيمة فإنها تكون بحاجة إلى رجل عظيم يأخذها بين يديه وينظمها ويضيف إليها ما يعتقد أنه ضرورى ، ويعلنها ويؤكد عليها ويؤسس علما قائما بذاته ، وكان هذا الرجل هو « فونت » .

★ ★ ★

الفصل السادس
تاريخ حركة القياس النفسى

أعدت الاختبارات النفسية بقصد أن تستخدم لتحديد الفروق بين الأفراد فى المجالات المختلفة ، مثل الذكاء والاستعدادات الخاصة والتحصيل والصلاحية للمهن المختلفة ، إلى جانب قياس سمات الشخصية ، كذلك استخدمت الاختبارات النفسية فى دراسات تتعلق بنمو القدرات العقلية عبر المراحل العمرية المختلفة ، وفى دراسات تتعلق بدراسة الفروق بين الجنسين أو بين الأجناس ، تلك الفروق التى تعزى إلى أسباب وراثية أو بيئية ، هذا بالإضافة إلى تحديد الموهوبين وضعاف العقول والتمييز بين الأسوياء والمرضى وبين العصابيين والذهانيين .

وقد أسهم فى نشأة حركة القياس النفسى مجموعة من العلماء من أوربا وأمريكا ، وهم لم يكوّنوا مدرسة بالمعنى الحرفى والتقليدى لهذه الكلمة ، ولكنهم ساروا فى طريق واحد وغلبت عليهم الاتجاهات العملية الإنشائية وكانوا (أمبيريقيين) أكثر منهم منظرين .

القرن التاسع عشر :

وفى القرن التاسع عشر ظهر مجموعة من العلماء اهتموا بدراسة الفروق الفردية ، ورغم أن حقيقة هذه الفروق كانت واضحة للعيان لعدة قرون ، إلا أن هذه الحقيقة لم تدرس بصورة علمية إلا منذ قرن تقريبا .

ويعد « فرانسيس جالتون » (١٨٢٢ / ١٩١١م) أول عالم يقوم بدراسة الفروق الفردية ، ورغم أن الفلاسفة والعلماء فى العصور القديمة وبداية العصر الحديث

لاحظوا تلك الفروق . والمهم أن هؤلاء العلماء الذين لاحظوا هذه الفروق انقسموا إلى فريقين : الفريق الأول لم يهتم بتصميم اختبارات لقياس الفروق الفردية ، حيث أنهم كانوا ينتمون إلى جمهرة المفكرين غير التجريبيين الذين اهتموا بالتأملات الأرائكية ، ودراسة أمور فلسفية مثل العلاقات بين النفس والجسم ، الازدواجية بين العقل والمادة ، ودراسة موضوع طبيعة الأفكار أو الملكات العقلية أو الترابط الفلسفى الكلاسيكى ، أما الفريق الثانى فإنه برغم انتمائه إلى الأسلوب التجريبى إلا أن اتجاههم كان جهة النظريات العامة وليس باتجاه دراسة الفروق فى القدرات النفسية .

ومن الفريق الثانى - وهم من الألمان - « فبر » الذي اهتم بدراسة أمور مثل تمييز الأوزان أو الرؤية أو السمع والعتبات الحسية ، أى أن إسهاماته تتمثل أساسا فى السيكوفيزيقا وقوانينها ، ومن هذا الفريق الثانى أيضا « فخنر » الذى واصل طريق « فبر » واهتم بتطبيق الأساليب المضبوطة فى العلوم الطبيعية على « العالم الداخلى » للإنسان . وثالث هذا الفريق « جوهانز موللر » الذى اهتم بدراسة فسيولوجيا العمليات الحسية والإدراكية .

ورغم أن « فونت » (١٨٣٢ / ١٩٢٠م) - مؤسس علم النفس ، وصاحب المختبر النفسى الأول - درس عن طريق الاستبطان عمليات مثل الرؤية والسمع وزمن الرجع فإنه مثل سابقيه أهمل دراسة الفروق النفسية ، وهذا ما تداركه تلميذه « جيمس كاتل » (١٨٦٠ / ١٩٤٤م) الذى مضى فى تلك الدراسة رغم عدم موافقة أستاذه على ذلك .

وفى فرنسا ظهر فى القرن التاسع عشر اهتمام بدراسة الفروق النفسية فى القدرات العقلية ، وكان من بين المهتمين بذلك عالمان تجدر الإشارة إليهما عند تاريخ حركة القياس النفسى ، الأول : هو الطبيب النفسى الفرنسى جين أسكيرول Esquirol (١٧٧٢ / ١٨٤٠م) ، والثانى هو الطبيب الفرنسى « إدوارد سيجون » Seguin (١٨١٢ / ١٨٨٠م) حيث اهتما بدراسة الضعف العقلى والمرض العقلى .

وقد أشار « أسكيرول » فى بادئ الأمر إلى الفرق بين المرض العقلى والضعف العقلى ، حيث كانت هذه الحالات اللاسوية يخلط بينها ، كذلك ميز بين مستويات الضعف العقلى من العته والبله والهوك ، ومع ذلك فإن « أسكيرول » رغم تحديده لهذه المستويات لم يستطع أن يميز بينها ، وأن يحدد خصائص كل مستوى ، وكان إخفاقه يرجع إلى أنه اتخذ مقاييس جسمية مثل شكل الجمجمة وكبر حجمها، وهذا ما نجح فيه بعد ذلك « بينيه » .

ومع ذلك فقد تنبه « أسكيرول » إلى حقيقة أساسية ، وهى أن تطور اللغة والقدرة على استخدامها هو محك سيكولوجى دقيق لتحديد مستويات الضعف العقلى ، وهذه الملاحظة التى انتبه إليها « أسكيرول » ذات أهمية تاريخية . لأنه بعد مرور عشرات السنين فإن استخدام اللغة وفهمها عده علماء القياس المحدثون وعلى رأسهم «تيرمان » Terman (١٨٧٧ / ١٩٥٦م) القياس الأمريكى الشهير، أحد المظاهر الهامة – إن لم يكن أهم مظهر – فى قياس الذكاء .

ويعد « سيجون » من الرواد فى أساليب تدريب المتخلفين عقليا حيث عين فى ١٨٤٧م مسئولا عن مدرسة لضعاف العقول ، بالإضافة إلى أنه كان يدير مدرسة خاصة لهذا الغرض . وقد اعتقد « سيجون » أن مساعدة ضعاف العقول وتدريبهم يمكن أن يؤدى إلى تحسن سلوكهم ، وإلى تحسن فى استغلال قدراتهم العقلية المحدودة ، وإلى تحسين فى قدراتهم على التعامل بالمال ، هذا إلى جانب تحسين فى شخصياتهم بوجه عام . وقد أصدر عام ١٨٤٦م كتابا عن « البله وعلاجه » وهو مثل « أسكيرول » حاول معرفة الأسس التى يمكن – بناءً عليها – التمييز بين مستويات الضعف العقلى المختلفة .

وفى عام ١٨٤٨م هاجر « أسكيرول » إلى الولايات المتحدة ، حيث تابع الاهتمام بدراسة موضوع ضعاف العقول ، وقد أثبتت طرقه العلاجية التدريبية لضعاف العقول فائدتها فى تحقيق بعض أهدافها من تحسن سلوكهم وقدراتهم وشخصياتهم .

كما أن اهتمامنا بكل من « أسكيرول » و « سيجون » راجع إلى جهودهما التى كانت ترمى إلى إيجاد محك سيكولوجى يمكن بواسطته التمييز بين المستويات المختلفة للضعف العقلى ، وإلى جانب ذلك فما هو جدير بالذكر أن « سيجون » مازال مشهورا حتى الآن بلوحة الأشكال التي تنسب إليه والتى تكونُ جزءا مهما من اختبارات الذكاء العملية .

وعلى هذا يتضح أنه حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم يكن ثمة اهتمام بدراسة الفروق دراسة علمية يعتد بها ، وعدم الاهتمام هذا أدى بلاشك إلى تأخير ظهور مدرسة القياس النفسى ، ذلك أن القياس النفسى هو وسيلة دراسة هذه الفروق . وبالنسبة لـ « جالتون » الذى تأثر بالعلوم البيولوجية فإن دراسته للفروق الفردية كانت موجهة نحو النواحى البيولوجية وليست النواحى السيكولوجية.

وقد أشار « جالتون » إلى ذلك ، فى مقدمة كتابه الذى أصدره عام ١٨٨٣م بعنوان « دراسة الملكات الإنسانية » يشير إلى أن هدفه العام هو معرفة الخصائص الوراثية عند البشر ، ومعرفة الفروق الأساسية بين الأجناس المختلفة ، وذلك حتى يعرف إمكانية استئصال أو تغيير الاستعدادات المتدنية لبعض الأفراد ، وكذلك تحديد ما إذا كانت إجراءات الاستئصال هذه ممكنة ومعقولة بحيث يمكن تجنيب الأجيال المستقبلة مثل هذه الحالات من الاستعدادات المتدنية لبعض أفرادها . وهذا الاتجاه من « جالتون » يدل على اهتمامه الشديد بالبيولوجيا والوراثة ، كما أن مشكلة الأثر النسبى للوراثة والبيئة - التى مازال علماء النفس على اهتمام بها - من المشكلات التى دعت إلى إعداد اختبارات الذكاء .

ومما يجدر ذكره أن « جالتون » حاول قياس الذكاء عن طريق بعض المهارات الحسية الحركية ؛ لأنه افترض أن هذه المهارات ترتبط بالذكاء ، ورغم أنه تبين عدم وجود علاقة بين المهارات الحسية الحركية والذكاء إلا أن دراسات « جالتون » لفتت الأنظار إلى أهمية موضوع القياس النفسى .

القرن العشرون :

هذا وقد أسهم « كارل بيرسون » Pearson (١٨٥٧ / ١٩٣٦م) الإحصائى الإنجليزى الشهير ، فى دفع حركة القياس النفسى - وهو تلميذ « جالتون » المتأثر به تأثرا شديدا - حيث قدم إسهامات إحصائية عديدة فى مجالى علم النفس والبيولوجيا ، منها على سبيل المثال مفهوم الانحراف المعيارى كمقياس للتشتت ، كما طور اختبار « كا ٢ » لقياس حسن المطابقة ، هذا إلى جانب توصله لمعادلة حساب (معامل الارتباط) . هذا ولم يكن هدف « بيرسون » هو مجرد الوصول إلى معادلات إحصائية فقط ، ولكن كان هدفه الرئيسى تقديم أساليب إحصائية علمية يمكن أن تكون ذات فائدة فى معالجة البيانات ومعرفة العلاقات الارتباطية فى مجال علم النفس ، وهو إن لم يكن أسهم فى القياس النفسى بصورة مباشرة إلا أنه قدم الكثير من المعادلات الإحصائية التى استفاد منها رجال القياس النفسى فيما بعد .

ثم تابع « سبيرمان » Spearman (١٨٦٣ / ١٩٤٥م) الإحصائى الإنجليزى الخط نفسه الذى اتخذه « بيرسون » ، وقد اتجه « سبيرمان » إلى دراسة علم النفس على يد « فونت » فى ألمانيا ، وطوف بالجامعات الألمانية العريقة مثل «فرزبورج» و « برلين » و « جوتنجن » ونشر عام ١٩٤٥م أثناء وجوده فى ألمانيا مقالة هامة عن « قياس وتحديد الذكاء بطريقة موضوعية » ، وقد أشار فى مقالته هذه إلى التحليل العاملى كأسلوب إحصائى .

وتتمثل إسهاماته فى مجال القياس النفسى خاصة وعلم النفس عامة ، فى دراسته الموسعة عن التحليل العاملى وتقديمه نظرية العاملين الشهيرة فى الذكاء والتى تفترض وجود عامل عام مبثوث في كل نشاط عقلى ذكائى ، ثم عوامل نوعية يقتصر أثر كل منها على جانب عقلى واحد دون غيره .

أعمال « بينيه » :

وفى البدايات الأولى للقرن العشرين ظهرت أعمال الرائد الأول لمدرسة القياس النفسى وهو العالم الفرنسى « ألفرد بينيه » BINET (١٨٥٧ / ١٩١١م) ومن الصعب - فى عجالة كهذه - أن نوفى «بينيه» حقه فى التحدث عن إسهاماته وخدماته الجليلة لعلم النفس ، ولكن من المهم أن نذكر أن إسهام « بينيه » كان إسهاما واضحا ومتميزا ، حيث جمع فى مقياسه الشهير نتائج دراسات واسعة وتطبيقات وإجراءات تشير إلى دأب ومثابرة علمية قل أن تتكرر .

وكان « بينيه » واسع الاهتمامات ، فقد حصل على درجات علمية فى القانون وفى العلوم . ومن أهم الوظائف التي تقلدها أنه عين مديرا لمختبر علمى للفسيولوجيا فى جامعة السربون ، وأصدر عام ١٨٩٤ أول مجلة لعلم النفس فى فرنسا .

وإلى جانب ذلك نشر عددا كبيرا من الموضوعات فى مجالات علم النفس المختلفة . مثل التنويم المغناطيسى والقابلية للإيحاء ، وعلم النفس التجريبى وعلم النفس الفارق والاستدلال ، ومن أهم أعماله العلمية « سيكولوجية الاستدلال » الذى أصدره عام ١٨٨٦م و « الدراسة التجريبية للذكاء » الذى أصدره عام ١٩٠٣م .

هذا وقد عمل مع « بينيه » مجموعة من المساعدين على رأسهم عالم النفس « ثيودور سيمون Simon » (١٨٧٣ / ١٩٦١م) حيث عارضوا ما أعده « جالتون » من اختبارات حسية مركبة لقياس الذكاء على أساس أن مثل هذه الاختبارات بالغة السهولة ولا يمكنها أن تميز بين الأفراد ، كما أنها لا تبرز الفروق الفردية بينهم ولا تتصل بالعمليات العقلية المعقدة والراقية ، وعن طريق هذه العمليات العقلية المعقدة والراقية - كما رأى « بينيه » - يمكن التمييز بين الأفراد ، وتبين الفروق فيما بينهم ، حيث إن هذه العمليات المعقدة والراقية هى التى تميز بين الأفراد بصورة دقيقة ومباشرة أثناء مناشط الحياة اليومية ، بينما تكون الفروق الحسية الحركية أقل من حيث مداها ، وكذلك اعتقد « بينيه » أن قياس العمليات الحسية الحركية يعطى

نتائج دقيقة ، ولكنه مع ذلك كان يريد أن يقيس العمليات العقلية العليا ، ولذا كان على استعداد للتضحية بالدقة التى يمكن الوصول إليها عن طريق قياس العمليات الحسية ، وذلك فى سبيل قياس - ولو بدقة أقل - العمليات العقلية المتكاملة عند الإنسان .

وعند قياس الوظائف العقلية العليا ، فإن الدقة المتناهية - ولو أنها مطلوبة - ليست ضرورية كما هى ضرورية فى قياس الوظائف الحسية الحركية البسيطة، وذلك بسبب أن الفروق الفردية يمكن ملاحظتها عند قياس الوظائف العقلية العليا ، وقد أعلن « بينيه » صراحة أن مقياسه ليس مقياساً بالمعنى الفيزيقى للمقياس الذى يقيس الأطوال والأوزان ، ولكن هدف هذا المقياس هو تصنيف الأفراد إلى مستويات متدرجة من الذكاء .

وقد اهتم « بينيه » ومساعدوه بدراسة طبيعية ومدى تعدد الوظائف العقلية من شخص إلى آخر ، وكذلك تحديد العلاقات المتداخلة بين الوظائف أو العمليات العقلية بعضها ببعض ، وعلى ذلك اتجه اهتمامهم إلى دراسة عمليات عقلية ، من بينها التذكر والانتباه والتخيل والفهم ، إلى جانب قوة الإرادة والقوة العضلية والحكم البصرى والقابلية للإيحاء ، وكانت هذه العمليات بمثابة الملكات التى يختلف كل فرد فيها عن الآخر ، كما أن معرفتها وتقديرها عند فرد معين تمكننا من التمييز بينه وبين الأفراد الآخرين .

وثمة كلمة عن اختبار « بينيه - سيمون » هذا الاختبار الرائد ، ففى عام ١٩٠٤م واتت الفرصة لهذين العالمين فى دراسة الفروق فى القدرة العقلية ، إذ كونت وزارة المعارف الفرنسية لجنة لدراسة وسائل التعليم للأطفال من ضعاف العقول فى مدارس باريس ، لأن هؤلاء الأطفال كانوا غير قادرين على استيعاب أساليب التدريس فى المدارس العادية ، وكانت الخطة هى « عزل » هؤلاء الطلاب من المدارس العامة وتلقينهم الدراسة فى مدارس خاصة بهم ، وكان القبول فى تلك المدارس الخاصة يتم عن طريق الفحص الطبى والنفسى ، وكانت الحاجة إلي

مقياس موضوعى لتحديد وانتقاء ضعاف العقول ملحة ، كما هو متوقع ، حيث كان اختيار ضعاف العقول بطريقة شخصية بواسطة خبراء أمراً تحفه الكثير من المخاطر والأخطار ، وهنا ظهرت طبعة ١٩٠٥م من اختبار « بينيه - سيمون » وهو أول أختبار ذكاء فى تاريخ حركة القياس النفسى ، وهدفه تحديد المستويات العقلية المختلفة .

وفى أثناء إعداد هذا الاختبار الأول التزم كل من « بينيه » ، و « سيمون » بدراسة وتحديد المشكلات العملية التى تنشأ من إعداد اختبار لقياس القدرات العقلية لطلاب المدارس ، وعن طريق هذا المقياس يمكن التمييز بين الشخص العادى وضعيف العقل .

وبالنسبة لهذا الاختبار الأول فقد طبق فى باريس تحت إشراف « بينيه » نفسه وطبق فى أماكن أخرى من أوربا . ونتيجة لهذه التطبيقات صدرت طبعة ١٩٠٨م حيث قام عدد من رجالات علم النفس بتطبيق هذا الاختبار فى بلادهم ، وخضعت هذه الطبعة كسابقتها للتنقيح والزيادة والتعديل . وصدرت الطبعة الأخيرة عام ١٩١١م - وكانت آخر أعمال ذلك الرجل العظيم فى مجال القياس النفسى لأنه توفى بعد الانتهاء منها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن العلماء الذين أسهموا مع « بينيه » فى تطبيق الاختبار فى مراحله المختلفة هم : من بلجيكا « دجاند » ، ومن أمريكا « جودارد » ، ومن ألمانيا « بوبرتاج » ومن إيطاليا « فرارى » . ولعل هذا يبين عالمية الاهتمام بهذا الاختبار منذ ظهوره .

وعلى هذا يمكن القول : إن « بينيه » هو بالنسبة لعلم النفس رجل ومدرسة ، لم يشغل نفسه بالنظرية ولكنه شغل نفسه بإعداد اختباره وتنقيحه أكثر من مرة ، وكان مقياسه هدية إلى علم النفس لا تدانيها هدايا المنظرين الذين ملأوا صفحات كثيرة فى تنظير موضوع الذكاء دون أن يستطيعوا إعداد مقياس يصل إلى كفاءة مقياس « بينيه » الذى تمت صياغته فى وقت مبكر جدا من تاريخ علم النفس الحديث .

لمزيد من المعلومات اقرأ الحاشية (١) .

قياس الذكاء فى أمريكا :

وفى أمريكا يعد « كاتل » Cattel (١٨٦٠ / ١٩٤٤م) صاحب إسهامات فى حركة دراسة الفروق النفسية وقد عاصر « جالتون » - وإن كان أصغر منه سنا بكثير - وكان « كاتل » ثوريا في مواجهة مدرسة « فونت » البنائية التى كانت تعارض دراسة الفروق الفردية عن طريق الاختبارات النفسية ، وفى عام ١٨٩٠م صاغ «كاتل» تعبير الاختبار النفسى Mental test لأول مرة عندما وصف الاختبارات التى كان يستخدمها فى مختبر علم النفس بجامعة « بنسلفانيا » وكانت اختبارات «كاتل » تدور حول التذكر والتخيل وقوة البصر وقوة السمع والصور اللاحقة ورؤية الألوان وإدراك الأوزان وإدراك الوقت والحساسية للألم وإيقاع الحركة وزمن الرجع . وكانت دراسة زمن الرجع أهم تلك الدراسات بالنسبة لعلم النفس الفارق ، إلا أن دراسة زمن الرجع - رغم أنها تؤدى إلى نتائج دقيقة - لا تفيد فى دراسة العمليات العقلية العليا والراقية ، وقد تنبه « كاتل » إلى هذا الأمر ولكنه كان على يقين من أن قياس مثل هذه العمليات العقلية العليا يحتاج إلى مزيد من البحوث والدراسات .

وقد أشارت جمعية علم النفس الأمريكية (A P A) فى عام ١٨٩٥ م إلى أهمية دراسات الفروق الفردية ، وشكلت لجنة لهذا الغرض كان « كاتل » أحد أفرادها ، وكان هدف اللجنة تنمية دراسه الفروق الفردية بالتعاون مع مختبرات علم النفس الموجودة فى ذلك الوقت ، وفى عام ١٨٩٦ م قامت الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم بتكوين لجنة هدفها إعداد دراسة عن مسح اثنجرافى (يتعلق بالوصف الاجتماعى) عن الأجناس البيضاء فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان « كاتل » أحد أعضاء هذه اللجنة أيضا ، وهو الذى أكد على أهمية استخدام الاختبارات النفسية فى هذا المسح ، وذلك بالتعاون مع لجنة جمعية علم النفس الأمريكية السابق الإشارة إليها .

هذا ويجمع مؤرخو حركة القياس النفسى على أن التطور الكبير فى الاختبارات النفسية ودراسة الفروق فى الولايات المتحدة الأمريكية إنما حدث بعد أن عرفت الولايات المتحدة اختبار « بينيه - سيمون » بطبعاته المختلفة . وكما سبق أن ذكرنا أن « جودارد » Coddard (١٨٦٦ / ١٩٥٧م) أول من أعد هذا الاختبار للاستخدام فى الولايات المتحدة ، إذ نشر عام ١٩١١ م تقنينا لطبعة ١٩٠٨ م من الاختبار ، حيث كان « جودارد » فى ذلك الوقت مشرفا على أحد مختبرات علم النفس التابع لمدرسة لضعاف العقول فى ولاية « نيو جيرسى » الأمريكية ، وهكذا كان استخدام هذا الاختبار فى أمريكا فى انتقاء وتحديد ضعاف العقول هو الاستخدام نفسه فى فرنسا .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام عالم النفس الأمريكى « لويس ترمان » Terman (١٨٧٧ / ١٩٥٦م) الأستاذ بجامعة «ستانفورد » الأمريكية الشهيرة ، والذى قام فى عام ١٩١٦ م بنشر طبعة أمريكية تحت رعاية جامعة « ستانفورد» من اختبار « بينيه » مع كتاب عن « قياس الذكاء » ، وعرض فى تلك الأعمال العلمية الهامة لمقياس « بينيه » ومعاييره وتعليماته وطريقة التصحيح ، وفى عام ١٩٣٧ صدرت طبعة جديدة ، وتوالت الطبعات باللغة الإنجليزية والترجمات باللغات الأخرى ، هذا وقد أسهمت مع « ترمان » زميلته « ميريل » Merril . ومازال هذا الاختبار يستخدم فى العيادات النفسية ومؤسسات الضعف العقلى ، ويتدرب عليه طلاب علم النفس فى معظم أنحاء العالم .

وفى عام ١٩١٦ م ظهرت حركة جديدة فى أمريكا تهدف إلى إعداد اختبارات جمعية لقياس الذكاء ، إذ من المعروف أن اختبار « بينيه » بمراجعاته المختلفة هو اختبار فردى يتطلب وقتا طويلا من المفحوص ومن الأخصائى النفسى ، وهذا من شأنه أن يجعل الاختبار غير مناسب ، إذا كان الأمر يتطلب قياس ذكاء أعداد كبيرة من الأفراد، وخاصة إذا كانت هذه الأعداد تتجاوز الآلاف ، كما هو الحال فى المدارس أو فى القوات المسلحة ، وهنا ظهرت الحاجة إلى إعداد اختبارات جمعية.

وعلى الفور شرع علماء النفس فى أمريكا فى دراسة العمليات العقلية التي يتطلبها النجاح فى العمل المدرسى عن طريق الاختبارات الجمعية ، ومهما يكن من أمر فإن إعداد الاختبارات الجمعية كان بمثابة نقلة فى مجال القياس النفسى . وهذا الاتجاه نحو إعداد اختبارات جمعية لقى تدعيما هائلا عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م ، وكانت الحاجة ملحة إلى تجنيد وتدريب عدد كبير جدا من الجنود ، وقد وافقت الحكومة الأمريكية فى ذلك الوقت على اتخاذ الاختبارات النفسية وسيلة لقياس الذكاء والاستعدادات المهنية ، وقد دفع هذا الموقف حركة القياس الجمعى دفعة قوية بحيث توصل فريق من العلماء فى عام ١٩١٧م إلى إعداد اختبارى « ألفا وبيتا » Army Alpha and Beta tests وكان على رأس هذا الفريق « روبرت يركس » Yerks (١٨٧٦ / ١٩٥٦م) أستاذ علم النفس المقارن بجامعة « ييل » الأمريكية ، والضابط فى الجيش الأمريكى ، ومما يجدر ذكره أن عددا من علماء النفس عمل فى الجيش الأمريكى فى ذلك الوقت ، ومنهم على سبيل المثال شيخ مؤرخى علم النفس «أدوين بورنج » Boring (١٨٨٦ / ١٩٦٨م) الذى كان ضابطا صغيرا تحت إمرة « يركس » وهكذا أدى تعاون علماء النفس مع الجيش الأمريكى إلى نمو حركة القياس الجمعى نموا هائلا .

ولأن إجراء هذه الاختبارات كان على أعداد كبيرة فإن البيانات التى حصل عليها العلماء من هذه العينات ساعدت فى إجراء المزيد من الدراسات ، وخاصة فى موضوع الأثر النسبى للوراثة والبيئة والفروق القومية والعرقية ، وكذلك دراسة موضوع شائق هو : ما العمر الذى تصل فيه القدرة العقلية أقصى درجاتها ؟.

وفى السنوات التالية أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها نشرت كميات هائلة من الدراسات والبحوث والموضوعات ، ونشر العديد من الاختبارات ، يتمتع بعضها بدرجة عالية من الصدق والثبات .

ومما تجدر الإشارة إليه – عند التحدث عن حركة قياس الذكاء فى أمريكا – عالم القياس الأمركى الشهير « دافيد وكسلر » Wechsler (١٨٩٦ / ١٩٨١م) وهو الاسم الثانى بعد « بينيه » . ومن أهم إسهاماته فى حركة القياسى النفسى ما يلى :

اختبار « وكسلر » لذكاء الراشدين .

وهو يقيس الذكاء من سن (١٦) حتى سن (٧٥) . ويتكون من قسمين أساسيين: القسم اللفظى ويتضمن مقاييس فرعية لقياس المعلومات ، إعادة الأرقام، المفردات ، الفهم ، المتشابهات ، الحساب . والقسم العملى يتضمن مقاييس فرعية لقياس تكملة الصور ، وترتيب الصور ، ورسوم المكعبات ، تجميع الأشياء ، ورموز الأرقام .

اختبار « وكسلر » لذكاء الأطفال :

وهو لقياس ذكاء الأطفال من سن (٥) حتى سن (١٦) . وهو على غرار مقياس الراشدين .

يضاف إلى ما سبق إعداده اختباراً لقياس ذكاء الأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة ، وكذلك إعداده اختباراً لقياس الذاكرة . وفى اختبارات « وكسلر » للذكاء يتم استخراج نسبة ذكاء لفظية ونسبة ذكاء عملية ونسبة ذكاء كلية بناء على تحويل درجات المفحوص إلى درجات معيارية موزونة بحسابات إحصائية بالغة الدقة . لمزيد من المعلومات اقرأ الحاشية (٢) .

الاختبارات الأدائية :

عقب نشر اختبار « ستانفورد - بينيه » توجه نقد من السيكولوجيين مضمونه : أن هذا الاختبار رغم قيمته العلمية التي لاشك فيها يعتمد اعتمادا كبيرا على اللغة ، وعلى هذا الأساس فإن الأمر يحتاج أن يتبع هذا الاختبار المشبع باللغة باختبارات لا تتطلب القدرة على استعمال مفردات اللغة أو الأرقام أو المعانى المجردة . وعلى ذلك بدت الحاجة ملحة إلى إعداد اختبارات أدائية تتلافى ما عد نقصا فى اختبار « ستانفورد - بينيه » . وهذه الاختبارات الأدائية مكنت علماء النفس من قياس ذكاء من يعانون من صعوبات فى النطق أو السمع أو المكفوفين ، وبوجه عام

مكنت من قياس ذكاء من لا يستطيعون التعامل مع اللغة أو الأرقام أو المجردات لسبب أو لآخر .

والاختبار الأدائى Performance يقدم موقفا إدراكيا يتعامل فيه المفحوص مع أسئلة مثل : تكوين الأشكال أو المكعبات أو الصور أو تجميع الأشياء وفكها ، كما يطلق بعض علماء النفس لفظ اختبار الورقة والقلم على بعض الاختبارات التى تتناول مادة غير لفظية مثل : معالجة الأشكال الهندسية أو الأشكال الناقصة أو رموز الأرقام . ويفضل « فريمان » - أستاذ القياس الشهير - تسمية مثل هذه الاختبارات بالاختبارات غير اللفظية nonverbal لأنها لا تعتمد على التعامل مع الأشياء كما هو الحال فى الاختبارات الأدائية .

ومن أشهر الاختبارات الأدائية اختبار « بنتر - باترسون » والذى أعد عام ١٩١٧ م ، وهو اختبار يدور حول قياس الذكاء عن طريق إجراءات أدائية مثل : لوحات الأشكال ومعالجة الأشكال الهندسية وتكوين وتكميل الصور .. إلخ ، وكذلك اختبار « مقياس القدرة الأدائية » الذى أعده « كورنل » و « كوكس » عام ١٩٣٤ م ، وهو يدور أيضا حول قياس الذكاء عن طريق إجراءات أدائية مثل : بناء المكعبات وترتيب الصور ، وتذكر التصميمات وتكميل الصور .

اختبارات الاستعدادات :

وثمة نموذج جديد من الاختبارات أدى إليه التطور الذى حدث بسبب الحرب العالمية الأولى وهو اختبارات الاستعدادات Aptitudes ، واختبارات الاستعدادات هذه تختلف عن اختبارات الذكاء فى أنها تهدف إلى قياس قدرة الفرد على أداء عمل من نوعية معينة ، مثل الاستعداد الميكانيكى والكتابى والموسيقى . وقد تطورت حركة إعداد اختبارات الاستعداد بصورة واسعة لعدة أسباب ، أولها حاجة القوات المسلحة الأمريكية فى الحرب العالمية الأولى لانتقاء أفراد للقيام بأعمال تتطلب مهارات خاصة ، وثانى هذه الأسباب هو تعاظم أهمية التوجيه المهنى والاختيار المهنى بقصد وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب ، وثالث هذه الأسباب هو

معارضة بعض السيكولوجيين للاقتصار على اختبارات القدرة العامة ، واعتقادهم بوجود عدد من الاستعدادات الخاصة . ومهما يكن من أمر فإن اختبارات الذكاء العام واختبارات الاستعدادات الخاصة يكمل كل منهما الآخر .

وقد أعدت اختبارات الاستعدادات للتنبؤ بالنجاح فى الدراسة والتدريب على نواح متعددة مثل : الرسم والموسيقى والأعمال الكتابية والهندسية والقانون والطب ، ومجالات أخرى مثل : دراسة العلوم ودراسة الرياضيات .

ومن أهم الاختبارات التى ظهرت فى هذا المجال :

« اختبار الاستعداد لدراسة القانون » من إعداد : « فرسون » ، « ستوارد » عام ١٩٢٧ م.

« اختبار مكدورى للاستعداد الفنى » من إعداد « مكدورى » عام ١٩٢٩ م .

« اختبار ستانفورد للاستعداد العلمى » من إعداد « زيف » عام ١٩٣٠ م .

« اختبار ماير للاستعداد لدراسة الهندسة والعلوم » من إعداد « مور » عام ١٩٤٣ م .

« اختبار مينسوتا للاستعداد للتدريس » من إعداد « كوك » عام ١٩٥١ م .

وقد جرت على هذه الاختبارات تعديلات متعددة وأضيفت إليها العديد من بطاريات الاستعدادات ، وما تزال تستخدم حتى الآن فى الخزانة السيكولوجية .

اختبارات الميول المهنية :

أعدت اختبارات الميول المهنية Occupatinal interest inventories وذلك لإكمال مهمة اختبارات الذكاء واختبارات الاستعدادات الخاصة ، حيث تعطى اختبارات الميول المهنية معلومات عن ميول الفرد فى مختلف النواحى المهنية أو الدراسية . وهذا الميل إلى ناحية دراسية معينة ، أو ناحية مهنية معينة له علاقة باحتمال النجاح فيها .

ومن أهم الاختبارات التي ظهرت فى هذا المجال :

« اختبارات كودر للتفضيل المهنى » وهى مجموعة من الاختبارات أصدرها «كودر » منذ عام ١٩٤٨ .

« اختبار التفضيل الشخصى - من إعداد « إدواردز » عام ١٩٥٤ .

« اختبار سترونج للتفضيل المهنى » - من إعداد سترونج عام ١٩٥٩ م.

وقد أجريت على هذه الاختبارات تعديلات متعددة ، وما تزال تستخدم حتى الآن فى مجال القياس النفسى .

اختبارات التحصيل المدرسى :

يتصل قياس الاستعدادات الخاصة بقياس التحصيل المدرسى وإعداد اختبارات موضوعية لقياسه . واختبارات التحصيل المدرسى Educational Achievement لا تقصد التنبؤ بالنجاح المدرسى بالطبع ، ولكنها تهدف إلى قياس مدى ما حققه الفرد من تقدم معين فى تعلم مادة دراسية بعينها بعد أن درست له هذه المادة ، وقد تبين أن اختبارات التحصيل ذات قيمة عالية فى تحديد مدى الفروق بين الأفراد ، وفى تحديد مدى قوة الميول الدراسية عند الطلاب . وكذا تساعد اختبارات التحصيل على اكتشاف التفوق أو التخلف فى القدرات الخاصة ، كما تساعد هذه الاختبارات على تخطيط الحياة الدراسية للطلاب .

هذا كله بالإضافة إلى أن الاختبارات التحصيلية تساعد فى تقديم تقديرات موضوعية للتقدم الدراسى مقابل تقديرات المدرسين التي قد يشوبها عنصر الذاتية ، كما تمكن النتائج التى نحصل عليها من الاختبارات التحصيلية من التقويم التجريبى لطرق التدريس المختلفة .

ومن أهم الاختبارات التى ظهرت فى هذا المجال :

اختبار تشخيص مستوى القراءة من إعداد « موترو » عام ١٩٣٠ م .

« اختبار تحديد مستوى اللغات الأجنبية » من إعداد « سيموندز » عام ١٩٣٠ م.

« اختبار نيويورك للحساب » من إعداد « ريتستون » عام ١٩٥٦ م .

« اختبارات كاليفورنيا التحصيلية » من إعداد « تجز » و « كلارك » عام ١٩٥٧ م .

وقد طورت هذه الاختبارات التحصيلية وأضيف إليها الكثير ، وتزخر المراجع والكتالوجات المتخصصة بالتحدث عنها وعن الإضافات التى لحقت بها وطرق تصميمها (وبعضها يتم تصميمه على الحاسبات الإلكترونية) ومعاييرها .

بطاريات الاختبارات :

فى خلال الحرب العالمية الثانية تم إعداد العديد من بطاريات الاختبارات Test Batteries وكان هدف هذه البطاريات (البطارية هى مجموعة اختبارات) قياس العديد من الاستعدادات الخاصة ، وذلك ليمكن استخدامها فى المجال العسكرى ومجال التوجيه المهنى ، وخاصة فى توزيع الأفراد حسب استعداداتهم على مختلف وحدات القوات المسلحة الأمريكية . وقد انتقل الاهتمام بهذه البطاريات من مجال القوات المسلحة إلى المجال المدنى ، وتمثل هذه البطاريات الآن مكاناً مهما فى حركة القياس النفسى الأمريكى .

ومن أهم البطاريات التي ظهرت فى هذا المجال هى : « بطارية الاستعدادات الفارقية D A T » من إعداد « بنت » وآخرين ، وهى تتناول قياس مجموعة من الاستعدادات مثل الفهم اللغوى ، القدرة العددية ، التفكير المجرد ، السرعة والدقة فى الأعمال الكتابية ، الفهم الميكانيكى ، العلاقات المكانية ، الهجاء واستخدام اللغة. وقد نشرت هذه البطارية لأول مرة عام ١٩٤٧ م وما تزال تجرى عليها التعديلات كل عدة سنوات حتى الآن ، والطبعات الأخيرة منها يتم تصحيحها على الحاسب الآلى .

« بطارية الاستعداد العام G A T B » من إعداد « دفوراك » وآخرين ، وكذلك نشرت لأول مرة عام ١٩٤٧ م بإشراف مكتب التوظيف بالولايات المتحدة

الأمريكية ، وتتناول قياس تسع وظائف هى : الذكاء والاستعداد اللفظى ، الاستعداد العددى (الحسابى) ، الإدراك المكانى ، إدراك الأشكال ، الاستعداد الكتابى ، التآزر الحركى ، مهارة الأصابع ، المهارة اليدوية . وقد جرت على هذه البطارية هى الأخرى الكثير من التعديلات .

أختبارات الشخصية :

بدأت الجهود لقياس الخصائص والسمات غير العقلية للشخصية ابتداء من القرن التاسع عشر . وقد بدأها « جالتون » فى عام ١٨٧٩م وتبعه « بيرسون » الذى أعد بعض الاختبارات وموازين التقدير . وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين استخدمت اختبارات تداعى المعانى التى أعدها « كارل يونج » صاحب مدرسة علم النفس التحليلى ، وكان الغرض من اختبارات التداعى هذه التوصل إلى معرفة السمات العميقة للشخصية ، وكذلك لتمييز الاضطرابات العقلية المختلفة ، وبالرغم من أن اختبارات تداعى المعانى مازالت تستخدم فى العيادات النفسية وغيرها ، إلا أنها أقل انتشاراً من استخبارات الشخصية والطرق الإسقاطية .

ومع اتساع استخدام اختبارات الذكاء الفردية فى المدارس والعيادات والمستشفيات ، اتضح أنه فى بعض الحالات يكون أداء الفرد على الاختبار ونجاحه أو إخفاقه فيه ، ونوعية ،مضمون استجابته ، هذا كله لا يكون فقط مؤشرا لمستوى قدرته العقلية ، بل يتأثر هذا الأداء بقدر كبير أو قليل بسمات الشخصية « غير العقلية » . وإلى جانب ذلك ظهر اهتمام بدراسة النواحى الإكلينيكية فى شخصية الفرد ، كما أنه أثناء الحرب العالمية الأولى ظهرت حالات لبعض الأفراد يعانون من اضطراب فى الشخصية .

والآن تستخدم اختبارات الشخصية بشكل واسع حيث يتم بناء عليها تحديد سمات الشخصية ، وذلك فى المجالات العسكرية أو المدنية ، وكذلك تستخدم

اختبارات الشخصية فى دراسة الفروق بين الجماعات ، كما تستخدم اختبارات الشخصية للمساعدة فى تشخيص بعض حالات الاضطراب النفسى والعقلى . وتزخر الخزانة السيكولوجية بعديد من الاختبارات النفسية لها قدر كبير من الكفاءة .

هذا وتعد موازين التقدير Rating Scales من أوائل الطرق المستخدمة فى بناء الشخصية ، وموازين التقدير هى وسائل يتم بناء عليها الحكم على إجابات الشخص على عدة أسئلة ، وتكون هذه الإجابات على ميزان من عدة نقط . وقد استخدمت هذه الموازين خلال الحرب العالمية الأولى ، ودرست نتائج تطبيقاتها من النواحى النفسية والنواحى الإحصائية .

ويعد « ودورث » Woodworth (١٨٦٩ / ١٩٦٢م) - عالم النفس الأمريكى الشهير وأحد كبار مؤرخى علم النفس - أول من أعد اختباراً لقياس الشخصية عام ١٩١٩ م . وقد استخدم اختبار « ودورث » لقياس الشخصية بشىء من النجاح فى تحديد الأشخاص الذين يتسمون بصفات شخصية غير سوية بحيث تمنعهم من الخدمة العسكرية . وقد تطورت موازين التقدير بعد ذلك تطوراً هائلا .

أما الاختبارات الإسقاطية Projective Tests ففى الربع الأول من القرن العشرين ظهر هذا النوع من الاختبارات . وهذه الاختبارات تقوم على تقديم مادة مبهمة غامضة غير محددة إلى المفحوص مثل : صور غير محددة المعالم أو بقع حبر أو عبارات ناقصة ، وعلى هذا يكون للمفحوص فرصة أن يضفى على مادة الاختبار غير المحددة خصائص شخصيته ورغباته ودوافعه .

وأشهر الاختبارات النفسية الإسقاطية هو ما أعده الطبيب النفسى السويسرى « هرمان رورشاخ » Rorschach (١٨٨٤ / ١٩٢٢م) - الذى كان يجرى دراسات على بقع الحبر ودورها فى إثارة التخيل عند الإنسان وإمكانية استخدام هذه البقع لمعرفة قدرة الشخص على التخيل .

ولكن من خلال دراسته اكتشف أن لهذه البقع وظيفة أخرى وهى أنه يمكن استخدامها كاختبارات تميز بين سمات الشخصية المختلفة . وبالرغم من أن

«رورشاخ» قد عكف طويلا على دراساته حول بقع الحبر، إلا أنه لم يكن أول من استخدمها، حيث سبق أنها كانت تستخدم قبل ذلك لقياس سعة الخيال، وقد أصبح اختبار بقع الحبر اختبارا بالغ الشهرة، ويستخدم الآن فى العيادات والمستشفيات وفى البحوث النفسية فى أغراض قياس الشخصية.

كما اشتهر إلى جانب اختبار «رورشاخ» أداة إسقاطية أخرى هى «اختبار تفهم الموضوع» Thematic Apperception Test الذى أعده «هنرى موارى» Mur-ray (١٨٩٣ / ١٩٨٨) عام ١٩٣٥ وهو يتكون من ثلاثين صورة غامضة مرسومة على لوحات، بالإضافة إلى لوحة خالية تماما، ويطلب من المفحوص أن يؤلف قصة من عنده تتناول ما يحدث فى كل صورة من الصور. والمبدأ السيكولوجى الذى يقوم عليه الاختبار أن المفحوص سيعطى فى القصة التى يرويها تعبيرات وإشارات إلى حاجاته وقيمه واتجاهاته ومشاعره عن الأشخاص والمواقف والعالم من حوله. كما أنه سوف يشير - غالبا بلا قصد - إلى الصراعات والضغوط التى يعانى منها.

ورغم أهمية تفهم الموضوع، إلا أن اختبار بقع الحبر يتقدم عليه من حيث الأهمية والانتشار وكثرة الدراسات المتعلقة به.

ومهما يكن من أمر، فإن أكبر مشكلة تواجه اختبارات الشخصية هى مشكلة تتعلق بموضوعيتها وصدقها وثباتها، وخاصة إذا نقلت من ثقافة إلى أخرى وواجهت الفروق غير الحضارية.

الموقف الحالى لحركة القياس النفسى:

تأخذ اختبارات الذكاء واختبارات القدرات مكان الصدارة فى الخزانة السيكولوجية. وقد خضعت اختبارات الذكاء والقدرات لمراحل عديدة من التطوير والإعداد، وأجريت عليها الكثير من البحوث، ومن أسباب أهمية هذه الاختبارات حقيقة أساسية وهى أن الوظائف التي تقيسها هذه الاختبارات لم تكن مستعصية على القياس وذلك على خلاف اختبارات الشخصية.

ولأن الشخصية مفهوم شامل ، لأن مظاهر الشخصية متنوعة ومتداخلة ، فإن اختبارات الشخصية ليست على أساس قوى مثل اختبارات الذكاء والقدرات واختبارات التحصيل .

ومما يجدر ذكره أن الخزانة السيكولوجية الآن حافلة بالعديد من الاختبارات، وقد توفر على إعداد هذه الاختبارات مجموعة كبيرة من المؤسسات المتخصصة ، وأغلب هذه المؤسسات فى الولايات المتحدة الأمريكية . وتصدر هذه المؤسسات نشرات علمية سنوية تذكر فيها الاختبارات التى تقوم على نشرها والمعلومات الأساسية عن كل واحد من هذه الاعتبارات ، ويمكن للمتخصصين أن يطلبوا هذه النشرات العلمية كما يمكنهم أيضا الحصول على هذه الاختبارات عن طريق إجراءات معينة .

ومنذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها زاد الإقبال على استخدام الاختبارات النفسية فى أمريكا ، وذلك للحاجة إليها من ناحية ، ولكفاءة هذه الاختبارات من ناحية أخرى . فمثلا انتشر التعليم فى الولايات المتحدة - بعد الحرب العالمية الأولى - انتشارا كبيرا ، وظهرت الحاجة إلى تحديد ضعاف العقول تمهيدا لإلحاقهم بمدارس خاصة تتناسب مع مستواهم العقلى ، وبالنسبة للطلاب العاديين فإن الزيادة الهائلة فى عدد الطلاب والتوسع فى التخصصات التعليمية ، سواء على مستوى المدرسة أو مستوى الجامعة ، أدى إلى اللجوء إلى اختبارات القدرات والاستعدادات ، وإلى اختبارات الميول المهنية . وهذا اللجوء كان بغرض ممارسة الإرشاد والتوجيه التربوى ، ورغم ما يشوب هذه الاختبارات من شوائب فإنها أدق من ترك أمر التوجيه والإرشاد التربوى لمجرد فكرة الشخص عن نفسه ، أو النصائح أو الرغبات الشخصية .

كذلك ظهرت الحاجة ماسة أثناء ممارسة عملية التوجيه والإرشاد الطلابى إلى دراسة مشكلة التخلف الدراسى ، وهل التخلف الدراسى راجع إلى تدنى نسبة الذكاء أم أنه راجع إلى تدنى قدرات معينة ؟ أم راجع إلى نقص فى ميل الطالب إلى

دراسة بعينها ؟ وعند الإجابة على هذه الأسئلة لابد من الرجوع إلى الخزانة السيكولوجية .

أما مجال الصحة النفسية وعلم النفس الإكلينيكى فقد تطور تطوراً كبيراً فى النصف الثانى من القرن العشرين بحيث أصبحت الحاجة ماسة إلى استخدام الاختبارات النفسية فى مجال التشخيص النفسى والإكلينيكى ، بل وظهرت اختبارات جديدة تخدم علم النفس الإكلينيكى بوجه خاص ، مثل الاختبارات التى تقيس التدهور العقلى وتلف الوظائف العقلية .

أما البحوث النفسية فقلما يوجد بحيث لا يعتمد على اختبار أو أكثر يقيس به المتغير المراد قياسه . وهكذا أصبحت حركة القياس النفسى أقوى من أن تكون «مدرسة » بين مدارس علم النفس ، تلك المدارس التي تزخر بالمبالغات والتعسفات ، إنها « حركة » حافلة بالعمل حافلة بالإنجاز .

★ ★ ★

حاشية (١)

التطور التاريخى لاختبار بينيه :

- عام ١٩٠٥ قام « بينيه » ومساعده « سيمون » بنشر الطبعة الأولى من الاختبار ويتضمن ٣٠ عبارة .

- عام ١٩٠٨ قام « بينيه » ومساعده « سيمون » بنشر الطبعة الثانية من الاختبار ويتضمن ٦٠ عبارة، وهذه الطبعة تضمنت الإشارة إلى مفهوم العمر العقلى.

- عام ١٩١١ قام بينيه ومساعده « سيمون » بتوسيع الاختبار ليتضمن قياس ذكاء الراشدين .

- عام ١٩١٦ قام « تيرمان » و « ميريل » بتقنين طبعة أمريكية من الاختبار بإشراف جامعة ستانفورد تحت اسم « اختبار ستانفورد بينيه » وكانت عينة التقنين موسعة (ن = ١٠٠٠ من الأطفال و ٤٠٠ من الراشدين) وظهر فى هذه الطبعة مفهوم نسبة الذكاء I Q لأول مرة . وهذه الطبعة تركز على الجانب اللفظى .

- عام ١٩٣٧ صدرت الطبعة الثانية من تقنين جامعة ستانفورد على يد «تيرمان » و « ميريل »، وهذه الطبعة الثانية صدرت على هيئة صورتين الصورة ل والصورة م .

-عام ١٩٦٠ صدرت الطبعة الثالثة من تقنين جامعة ستانفورد حيث أدمجت الصورتان ل ، م فى صورة واحدة ، وكانت عينة التقنين موسعة (ن = ٤٥٠٠ طفل) وهذه الطبعة مثل سابقاتها تركز على الجانب اللفظى .

- عام ١٩٧٢ صدرت طبعة جديدة من إعداد ثورنديك بإشراف جامعة ستانفورد ، وفى هذه الطبعة إعادة تقنين ومراجعات كبيرة .

- عام ١٩٨٥ صدرت طبعة جديدة من إعداد ثورنديك ومساعديه « هاجن » و"ساتلر". ويقال أن هذه الطبعة تأتى على قدر كبير من الكفاءة والدقة ، ويذكر أن هذه الطبعة قننت على عينة كبيرة (ن = ٥٠١٣) من الأفراد تتراوح أعمارهم بين سنتين إلى سن عشرين وأحد عشر شهرا) .

ملحوظة : ثورنديك المذكور هنا هو روبرت ثورنديك أستاذ القياس النفسى الشهير فى كلية التربية جامعة كولومبيا وله كتاب حجة فى القياس النفسى بالاشتراك مع مساعدته إليزابيث هاجن الأستاذة بنفس الكلية . (وهو غير « إدوارد ثورنديك » عالم الترابطية الكبير الذى سوف نتحدث عنه فى موضع قادم).

حاشية (٢)

التطور التاريخى لمجموعة اختبارات ديفيد وكسلر لقياس الذكاء.

عام ١٩٣٩ نشر اختبار للذكاء تحت اسم اختبار وكسلر بلفيو من إعداد ديفيد وكسلر برعاية مستشفى بلفيو فى مدينة نيويورك الأمريكية ، وذلك بهدف مساعدة هذا الاختبار فى التشخيص الأكلينيكى . ويتكون الاختبار من ستة مقاييس لفظية وخمسة مقاييس أدائية . ونشر تحت اسم Wechsler - Bellevue

عام ١٩٤٦ نشرت طبعة جديدة معدلة من الاختبار السابق تحت اسم Wechsler - Bellevue

عام ١٩٤٩ نشرت طبعة جديدة موسعة من طبعة ١٩٤٦ لقياس ذكاء الأطفال من سن ٥ إلى ١٥ سنة و ١١ شهرا ولكن هذه الطبعة مقننة على البيض فقط ! ونشر تحت اسم Wechsler Intelligence Scale for children (WISC).

عام ١٩٥٥ نشرت طبعة جديدة من اختبار وكسلر بليفو يناسب الراشدين من أعمار ١٦ فيما فوق ونشر تحت اسم

Wechsler Adult Intelligence Scale (WAIS)

عام ١٩٦٧ نشرت طبعة جديدة لقياس ذكاء أطفال ما قبل المدرسة من سن أربع سنوات حتى ست سنوات ونصف ونشر تحت اسم

Wechsler Preschool and Primary Scale of the Intelligence (WPPSI)

عام ١٩٧٤ نشرت مراجعة لطبعة ١٩٤٩ أجريت فيها العديد من التعديلات . وتضمنت عينة التقنين مجموعات من الأمريكيين الملونين ويناسب الأعمار من سن ست سنوات إلى ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا . ونشر تحت اسم

Wechsler Intelligence Scale for children Revised (WISC - R)

عام ١٩٨١ نشرت مراجعة لطبعة ١٩٥٥ مع تعديلات طفيفة فى فقرات الاختبار ومعايير جديدة . نشر تحت اسم

Wechsler Adult Intelligence Scale Revised (WAIS - R)

عام ١٩٨٩ نشرت مراجعة لطبعة ١٩٦٧ فيها العديد من التعديلات لفقرات الاختبار ، ويناسب أعمار من سن ثلاث سنوات وسبع سنوات وثلاثة شهور - نشر تحت اسم :

Wechsler Preschool and Primary scale of Intelligence .

(WPPSI - R)

عام ١٩٩١ نشرت مراجعة لطبعة ١٩٧٤ فيها الكثير من التعديلات وتناسب نفس المستويات العمرية لطبعة ١٩٧٤ ونشرت تحت اسم:

Wechsler Intelligence Scale for Children 111 (WISC- 111)

★ ★ ★

الفصل السابع
تاريخ علم النفس المرضى

يمتد تاريخ علم النفس المرضى منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث، حيث كانت الأفكار والأساليب العلاجية جاهلة، ومعاملة المرضى غير إنسانية، حتى تطورت الأمور وظهرت النماذج الحديثة من طبية ونفسية، وهذه النماذج تقوم على أساس أن المرض العقلى له أسباب يمكن التوصل إليها ، وأنه قابل للعلاج بواسطة أساليب علاجية معينة . ومنذ العصور القديمة حتى العصر الحديث ، مرورا بالعصور الوسطى، حدثت تطورات كثيرة بحيث يمكن القول : إن قصة تاريخ علم النفس المرضى والعلاجى هى من أكثر القصص «درامية » فى تاريخ علم النفس .

العصور القديمة :

ساد الاعتقاد فى العصور القديمة بأن الأرواح، الشريرة منها خاصة، تتسبب فى إحداث الأمراض العقلية. وكان المعالج فى العصور القديمة يقوم أحيانا بإجراء عملية «ترينة» لاستئصال جزء من عظم الجمجمة بحيث تخرج الروح الشريرة التى تسكن فى الرأس أو فى الدماغ. ومما يجدر ذكره أن فحص جماجم هؤلاء المرضى الذين أجريت لهم هذه « الترينة » بين أنهم عاشوا عدة سنوات بعد إجراء هذه العملية .

وتشير كتابات الشعوب القديمة فى مصر وبابل والصين واليونان إلى أن الاضطرابات العقلية إنما تحدث نتيجة تمكن الأرواح الشريرة من المريض، وليس هذا بغريب على تلك العصور السحيقة، لأن الأرواح سواء الخيرة أو الشريرة كانت من العوامل التى تفسر بها شئون الحياة، شأنها فى ذلك شأن البرق والرعد والزلازل والأعاصير والحوادث الأخرى .

وكان القرار ما إذا كان الشخص يتملكه روح شريرة أو روح خيرة، يعتمد على «الأعراض» التى يبديها الشخص، فمثلا إذا كانت الأعراض تتضمن أحاديث أو سلوكيات ذات طابع دينى أو صوفى فإنه كان يظن أن الشخص تتملكه أرواح خيرة، وهذا الشخص كان يعامل بمنتهى الاحترام والتبجيل، لأنه كان يعتقد- أن مثل هذا الشخص يتميز بقوى خارقة ، لكن معظم المرضى الذين تتلبسهم الأرواح كان يظن أن هذا التلبس من قبل الأرواح الشريرة، ومن هنا كانت تختلف معاملتهم اختلافا شديدا عمَّن تتلبسهم الأرواح الخيرة، وكان يتصور أن المرض العقلى هو غضب من الآلهة. وكان الأسلوب العلاجى هو طرد الروح exorcism من الجسم الذى تلبسه. وكان هذا الطرد يتم إما عن طريق الدعاء إلى الآلهة، أو إحداث الضوضاء حتى تضيق الروح بالجسد الذى تتلبسه وتضطر إلى الخروج منه أو إعطاء جرعات «مسهلة» للمريض حتى تخرج الروح الشريرة خلال عملية الإسهال - هذا إلى جانب أساليب علاجية أكثر قسوة مثل تجويع المريض أو ضربه بحيث يكون بدنه بمثابة مكان غير ملائم لحلول الأرواح الشريرة مما يضطرها إلى الخروج - وكان العلاج مزيجا من الكهانة والسحر، وكان يقوم به الكهان فى أغلب الأحوال .

ومع ذلك ففى هذه العصور القديمة سادت بعض الأساليب العلاجية السديدة، ومثال ذلك أن « أمحوتب » أبو الطب فى مصر القديمة (عاش حوالى ٢٨٨٠ ق. م) كان معبده فى مدينة « منف » مدرسة للطب ومستشفى للعلاج، حيث كان يعالج المرضى المضطربين « عقليا » بأسلوب شبه إيحائى، وكان رجال الدين الذى يقومون بالعلاج يتفوهون بعبارات إيحائية للمريض أثناء نومه فى المعبد، إما نوما عاديا أو نوما ناتجا عن إعطاء المريض الأفيون، حيث تتسلل هذه العبارات الإيحائية أو بعضها إلى أحلامهم وتساعد على تحسين حالتهم ، وقد هيأ المصريون القدماء فى معابدهم وسائل علاجية تعد تقدمية جدا بالنسبة لذلك العصر السحيق، إذ كانوا - على سبيل المثال - يشجعون المرضى على شغل أوقات فراغهم بأنشطة مختلفة للتسلية والترفيه كالرسم والنحت ، والقيام بنزهات فى النيل، والاشتراك فى حفلات الرقص والغناء وممارسة بعض

الألعاب الرياضية. ومما لا شك فيه أن هذه الوسائل والأنشطة الإيجابية كان لها التأثير البالغ على تحسين حالة المريض .

وفى عصر اليونان الذهبى - وهو عصر الفلسفة والطب والرياضة - كان كبير أطباء اليونان القديمة وأعظم أطباء العصور القديمة «أبوقراط» Hippocrates (٤٦٠/ ٣٧٧ ق م) والذى سمى أحيانا « أبو الطب » - كان هذا الرجل ينكر أن يكون للأرواح دور فى إحداث المرض العقلى، وقد أشار إلى أن المرض العقلى له أسباب طبيعية، وأنه يتطلب علاجا مثل بقية الأمراض. و قد أكد « أبو قراط » على أن الدماغ هو مركز النشاط العقلى، وأن الاضطرابات العقلية إنما ترجع إلى مرض فى الدماغ، وكذلك أكد «أبوقراط» على أهمية الوراثة وأهمية الاستعداد للمرض، وأشار إلى أن « إصابات الرأس » من الممكن أن تؤدى إلى عطب فى الأجهزة الحسية والحركية للمصاب .

وقد صنف «أبوقراط» الأمراض العقلية إلى ثلاثة أصناف رئيسية ، هى الهوس mania ، والسوداوية أو الميلانكوليا melancholia والبطاح أو الهذيان phrenitis. وأعطى وصفا دقيقا لأعراض كل منها، وذلك من الملاحظات التى كان يبديها «أبوقراط» على مرضاه، وهذه الملاحظات - وهذا أمر يدعو للدهشة - كانت بالغة الدقة، كما أشار إلى أهمية دراسة الأحلام فى تفهم حالة المريض.

ومن الأساليب العلاجية التى أشار إليها « أبوقراط»: أن مريض «الميلانكوليا» يعالج، عن طريق ممارسة أسلوب حياتى هادئ ومنظم، وأن يبتعد عن الإفراطات فى المناشط أو الغذاء، وأن يركز فى غذائه على الخضروات، هذا إلى جانب «فصد الدم». وكذلك أوصى فى حالات الهستريا - الذى اعتقد بأنه مرض نسائى - - بأن الزواج هو العلاج الأمثل، وكذلك اعتقد «أبوقراط» بأهمية البيئة التى يعالج فيها المرض، وكان قليلا ما يعزل المريض عن أسرته . وقد أشار إلى عناصر أربعة، إذا كانت هذه العناصر متوازنة كانت الصحة ، وإذا اختلت هذه العناصر كان المرض ، هذه العناصر هى : الدموية والصفراوية والسوداوية والبلغمية .

وأشهر أطباء العصر القديم بعد «أبوقراط» هو «جالينوس» Galen (١٣٠/ ٢٠٠م) وهو يونانى الأصل، عاش فى روما القديمة، وكان طبيبا لبعض أباطرتها، ويمكن القول : إنه رغم شهرته الكبيرة لم يجدد فى الأساليب العلاجية التى أشار إليها «أبوقراط» أو فى الأوصاف الإكلينيكية للمرض العقلى، ولكن إسهامه الرئيسى كان فى دراسة الجهاز العصبى واستمرارية النظرة إلى الأمراض العقلية نظرة علمية . وقد قسم أسباب الأمراض العقلية إلى مجموعتين من الأسباب ، الأولى أسباب جسمية ، والثانية أسباب نفسية، و من أهم أسباب حدوث الأمراض العقلية فى نظره إصابات الرأس والإفراط فى شرب الخمر والصدمات والخوف والإخفاق فى الحب .

العصور الوسطى :

يذكر «كولمان» Coleman - وهو يؤرخ لعلم النفس المرضى، أن التقاليد العلمية للطب اليونانى لم تثمر إلا فى بلاد العرب، حيث أقيم أول مستشفى للطب العقلى فى بغداد عام ٧٩٢م ، وتبع ذلك إنشاء مستشفيات أخرى فى العواصم العربية الأخرى مثل دمشق والقاهرة. ويؤكد «كولمان» على أن المصابين بالأمراض العقلية كانوا يتلقون رعاية إنسانية أكثر بكثير من التى يتلقاها أمثالهم فى البلاد الأوربية المسيحية فى العصور الوسطى .

وكان أعظم وجوه الطب العربى « ابن سينا» Avicenna(٩٨٠/ ١٠٣٧م) وكان يعرف بأنه « أمير الأطباء » أو « الشيخ الرئيس » وقد أشار « ابن سينا » فى كتاباته إلى أمراض مثل : الهستريا، والصرع، واستجابات الهوس ، والميلانكوليا. ويعرض لنا « كولمان » حالة عالجها « ابن سينا » لأحد المرضى الذى عانى من الميلانكوليا، وسيطر عليه وهم مضمونة أنه بقرة ، وكان يخور كالبقرة ويمشى مثلها ويثير المتاعب لمن حوله، ويرفض الطعام، وكان يردد وهو يبكى « اذبحونى وكلوا لحمى » . وامتنع نهائيا عن الطعام ، وهنا استدعى « ابن سينا » لعلاجه، وكانت أول خطوة فى العلاج أن أرسل رسالة إلى المريض «يبشره » بقرب وصول الجزار ليقوم بذبحه، وكان هذا مدعاة لارتياح المريض، وبعد ذلك بقليل وصل «ابن سينا » وفى يده سكين حادة، ودخل غرفة

المريض صائحا: أين تلك البقرة التى سأقوم بذبحها؟ وهنا أصدر المريض صوتا يشبه خوار البقرة ليعلن عن نفسه، وأمر «ابن سينا» بأن يقيد المريض بالأغلال من يديه وساقيه ليهم بذبحه ثم تحسسه بيديه وقال : « إنها بقرة عجفاء غير سمينة ويجب أن تتغذى لتزداد شحما ولحما». وهنا قدم الطعام إلى المريض الذى أقبل عليه مرة بعد مرة حتى استعاد قوته وتخلص من أفكاره المرضية .

وبالنسبة لأوربا فإنه حدث فى أواخر القرن الخامس الميلادى كسوف حضارى شديد، وظهرت الخرافات القديمة وفسر المرض العقلى على أن حدوثه بسبب تلبس الشياطين والأرواح الشريرة بجسد المريض .

وفى هذه العصور كانت مسألة علاج الأمراض العقلية بأيدى رجال الكنيسة. وفى أوائل العصور الوسطى كان علاج مرضى العقول يتسم بشىء من العطف، حيث كانت تتلى الصلوات والأدعية للمريض ويرش عليه قطرات من ماء يسمى « الماء المقدس» ، وهو ماء تتلى عليه صلوات وتعاويذ ، كما يزور الأماكن المقدسة. وهذه الأساليب كانت تتخذ بغرض طرد الأرواح الشريرة، وعدت هذه الطريقة ناجحة جدا فى علاج المرضى الذين تتلبسهم الأرواح ، ويقال إن أحد القساوسة «طرد» من مريض واحد خمس أرواح شريرة ، ثم ساد الاعتقاد بأن القسوة الجسدية على مرضى العقول هى بمثابة عقاب للأرواح الشريرة التى تسكنها ، وذلك لأن الأساليب الرقيقة - مثل الصلوات والدعوات ورش الماء المقدس - كانت غير مجدية فى أحيان كثيرة ، مما شجع الاعتقاد بأن الأسلوب الأكثر جدوى لعلاج المريض العقلى، هو جعل جسم المريض مكانا غير صالح لإقامة الروح الشريرة، وذلك عن طريق الجلد بالسياط والتجويع وتغطيس جسم المريض فى ماء شديد الحرارة .

وبالنسبة للسحر witchcraft - ففى خلال القرن الخامس عشر الميلادى ساد الاعتقاد أن التلبس الشيطانى يحدث على نحوين :

- تلبس شيطانى كعقاب إلهى للمريض .

- تلبس شيطاني لأشخاص ليسوا مرضى ولكنهم راغبون فى هذا التلبس ليكونوا عونا للشيطان وأداة له . وهؤلاء هم السحرة، وهم قادرون على إتيان الخوارق، مثل إحداث العواصف والفيضانات والعجز الجنسى وإيذاء من يخالفهم وإتلاف المزراعات ، هذا إلى جانب قدرتهم على تحويل أنفسهم إلى صور الحيوانات ، وهذا الاعتقاد بوجود السحر والتلبس الشيطانى لم يكن مقصورا على عامة الناس بل كان موجودا عند رجال الدين المسيحى .

أما المرضى الذين تلبسهم الشيطان رغما عنهم فقد عد هذا التلبس بمثابة عقاب إلهى ، وكان علاجهم هو التعذيب لطرد الروح الشريرة، ولكن بمرور الوقت - حدث خلط بين هؤلاء المرضى وبين السحرة بحيث اعتبر أن المرضى هم من السحرة والمشعوذين، وعمت الشكوى من هؤلاء « المرضى السحرة » فى مدن أوربا ، بحيث أصدر البابا أمرا عاما عام ١٤٨٤م باتخاذ جميع الوسائل الكفيلة «بضبط» السحرة الذين أكرهوا على الاعتراف بأنهم عملاء الشياطين، وكذلك الاعتراف على عملاء الشياطين الآخرين ، وهؤلاء يعترفون بدورهم على غيرهم وهكذا. وكان الحرق حيا هو جزاء الساحر. وبالطبع كان معظم الذين يتم حرقهم أحياء هم من مرضى العقول الذين تنتابهم الهلاوس والهذيانات .

ظهور الاتجاهات الإنسانية :

أثارت القسوة البالغة التى عومل بها مرضى العقول رد فعل شديدا أدى إلى ظهور الاتجاهات الإنسانية، التى تمثلت عند بعض الأطباء والمصلحين فى دول غرب أوربا ، ومن أهم أصحاب الاتجاهات الإنسانية :

أولا : « ويير» Weyer (١٥١٥/ ١٥٨٨م)

طبيب ألمانى - اهتم كثيرا بما يحدث للمتهمين بالسحر من عقاب شديد، فدرس المسألة كلها، وأصدر عنها عام ١٥٦٣ م كتابا بعنوان « السحر والشياطين» ، وفى هذا الكتاب استعرض حالات عدد كبير من المتهمين الذين يجرى تعذيبهم وإحراقهم أحياء، وبين فيه أنهم ليسوا أكثر من مجرد أشخاص يعانون من أمراض جسمية أو أمراض

عقلية ، وعلى هذا فإن آثاما كبيرة ترتكب بحق أناس أبرياء، وأن هؤلاء المرضى لا يستحقون القتل، بل يجب أن يحظوا بالعلاج . ولقي كتاب « وبير» قبولا لدى عدد قليل من الأطباء ورجال الدين فى ذلك الوقت، ولكنه لقى معارضة شديدة من غالبية رجال الدين، بل أصدر أحدهم كتابا للرد على كتاب « وبير » متهما إياه بأنه « عميل للشيطان»، ومما لا شك فيه أن اكتشاف «وبير» كان بالغ الأهمية ولكنه كان سابقا لأوانه . وقد حالت الكنيسة دون انتشار هذا الكتاب .

ثانيا : سكوت Scott (١٥٣٨ / ١٥٩٩)

إنجليزى - درس فى «إكسفورد» وقضى شطرا كبيرا من حياته فى دراسة التلبس الشيطانى والسحر، وأصدر عام ١٥٨٤ م كتابا بعنوان « اكتشاف السحر » وفى هذا الكتاب أنكر أن يكون التلبس الشيطانى أو الأرواح الشريرة هى سبب الأمراض العقلية، كما أشار إلى أن النساء المتهمات بالسحر والشعوذة بريئات من ذلك . وأن حالتهن فى الحقيقة هى مرض عقلى وخلل فى الدماغ ، مما أدى إلى تعطل قدرتهن على الحكم وعلى التفكير الصحيح ، وأشار إلى أن أعراض المرض العقلى للإنسان - رجلا كان أو امرأة - هى آثار أعراض شديدة تتضمن خيالات وهلاوس ، وقد يكون مضمونها أن المريض يعتقد فى نفسه بأنه ذو قوة خارقة. وعلى ذلك فإن هؤلاء المرضى ليسوا مذنبين يستحقون التعذيب أو الحرق أحياء، بل مرضى يلزم علاجهم ، ولكن « سكوت » لم يكن أسعد حظا من « وبير » فقد أمر الملك « جيمس الأول » ملك إنجلترا بجمع نسخ هذا الكتاب وحرقها .

وفى القرن السادس عشر بدأ الاهتمام بإقامة مستشفيات الأمراض العقلية حيث أنشئت أول مستشفى لهذا الغرض عام ١٥٤٧ م فى لندن، ومن العجيب أنه كان يسمح للجمهور بمشاهدة حالات المرض العقلى مقابل بنس واحد، أما حالات المرض العقلى الخفيف فكان يسمح لهم بالتسول فى شوارع «لندن». وكان يطلق على المرضى اسم المجاذيب bedlam . ثم أسس مستشفى آخر فى المسكيك عام ١٧٦٤م، ثم فى فينا عام ١٧٨٤. وكان المرضى يعاملون فى هذه المستشفيات مثل الحيوانات والمجرمين .

أما فى الولايات المتحدة فقد تم إنشاء أول مستشفى بمدينة «فلادلفيا» بولاية «بنسلفانيا » عام ١٧٥٦م وكانت رعاية مرضى العقول فى الولايات المتحدة لا تختلف كثيرا عن معاملتهم فى أوروبا، وقد وصف أحد طلاب الطب عام ١٧٩٦م التحسن الطفيف لبعض الأساليب العلاجية المستخدمة فى مستشفى للأمراض العقلية بمدينة «نيويورك»، وذكر من بينها تقليل الأغلال التى يقيد بها المريض، إلا أن الأساليب العلاجية كانت تشمل تغطيس المريض فى الماء البارد على حين فجأة، كذلك إحداث القيء والإسهال وتصويب صنبور من الماء البارد على الرأس، هذا إلى جانب حبس المرضى فيما يشبه الزنزانات.

وحتى القرن التاسع عشر كان يتم حلق رؤوس المرضى ويقدم لهم الطعام غير الكافى ، كما أنهم يضطرون إلى بلع الأدوية المحدثة للإسهال، هذا إلى جانب الإقامة فى زنزانات مظلمة ، أما إذا لم تجد هذه الأساليب فمزيد من القسوة مثل التجويع والحبس الانفرادى أو الحمامات شديدة البرودة .

ورغم هذا التأخر الشديد فى الأساليب العلاجية فإن هذا لم يمنع ظهور بعض الحركات الإنسانية الإصلاحية التى كان لها صدى واسع، ومن أهم هذه الحركات الإنسانية الإصلاحية الحركة التى قام بها « فيليب بنل » Pienel (١٧٤٥/ ١٨٢٦م) الذى عين عام ١٧٩٢ م مديرا لمستشفى الأمراض العقلية فى «باريس» ، حيث حصل على إذن من إحدى لجان الثورة الفرنسية بفك أغلال المرضى، ومعاملتهم بالاحترام والعطف (يقال إنه وضع رأسه فى مقابل نجاح هذه التجربة)، ولحسن الحظ نجحت تجربته إلى حد كبير . ووضع المرضى فى غرف مشمسة، وسمح لهم بالتريض داخل المستشفى، وعوملت هذه المخلوقات بمزيد من الشفقة (حيث بقى بعض هؤلاء المرضى فى أغلال لمدة تزيد عن ثلاثين عامًا)، وكانت تجربة « بنل » أشبه بالمعجزة، حيث حل النظام محل الفوضى، وحل الهدوء محل الضجيج، وشفيت حالات كثيرة. وهكذا كانت فرنسا أول دولة فى الغرب تطبق هذا الاتجاه الإنسانى .

وفى إنجلترا قام « تيوك » Tuke عام ١٧٩٦م (وهو معاصر للفرنسى «بنل»)

بتنفيذ تجربة تشبه تجربة «بنل» الإنسانية حيث أنشأ «ملجأ يورك »، وهو نزل ريفى يقيم فيه مرضى العقول، ويعملون، ويلقون معاملة تتسم بالعطف، كما كان يسود هذا الملجأ « جو دينى » ولكن تجربة «ملجأ يورك » كانت أقل نجاحا من تجربة «بنل».

وفى أمريكا شجع «بنل» و «تيوك» على الأخذ بالاتجاه الإنسانى فى معاملة مرضى العقول، ويتمثل هذا الأمر فى إسهامات مؤسس الطب النفسى الأمريكى «روش» Rush (١٧٤٥/ ١٨١٣م) الذى اهتم بالبرامج العلاجية فى مستشفى بنسلفانيا اعتبارا من عام ١٧٨٣م ، وهو أول من كتب عن الطب العقلى فى أمريكا عام ١٨١٢ م وأول عالم أمريكى يعد مقررا دراسيا عن الطب العقلى، كما أسهمت تلميذته « دوروثيا دكس» Dix (١٨٠٢ / ١٨٨٧م) فى استكمال الاتجاه الإنسانى فى علاج مرضى العقول، حيث قادت حملات فى المدة بين ١٨٤١ إلى ١٨٨١ م - وذلك لإظهار المعاملة غير الإنسانية التى يلقاها مرضى العقول، ونتيجة لحملاتها خصصت عدة ملايين من الدولارات لإقامة مستشفيات جديدة للأمراض العقلية. ولم تقتصر هذه الحملات على الولايات المتحدة بل تجاوزتها إلى كندا .

وفى عام ١٩٠٨م أصدر « كيلفورد بيرس » Bears (١٨٧٦ / ١٩٤٣م) كتابا بعنوان «عقل وجد نفسه » يحكى فيه تجربة ذاتية حيث كان مريضا وأقام ببعض مستشفيات الأمراض العقلية، وحكى فيها عن المعاملة غير الإنسانية التى يلقاها المرضى، وبين أثر هذه المعاملة على تدمير صحة المرضى العقلية . وقد كسبت الحملة التى أثارها هذا الكتاب تعاطفا شديدا من الرأى العام الأمريكى.

ظهور النموذج الطبى :

تميز القرن الثامن عشر بتقدم فى الكيمياء والفسيولوچيا والتشريح مما أدى إلى تقدم العلوم الطبية، وصاحب ذلك الاهتمام دراسة أسباب الإصابة بالأمراض العقلية ، وفى هذا القرن ظهر النموذج الطبى medical model. ونعنى بالنموذج عملية تحليلية تساعد العلماء على ترتيب مادتهم العلمية، كما تساعدهم على رؤية العلاقات التى

تربط بين جزئيات هذه المادة. أما النموذج الطبى، فنعنى به الاتجاه العضوى الذى يفسر المرض العقلى على أنه بسبب تلف فى أنسجة المخ أو اختلال كيميائى فى أنسجة المخ .

وقد مهد لهذا الاتجاه العضوى، أو النموذج الطبى العالم الألمانى « هالر » Hall-er (١٧٠٨ / ١٧٧٧م) فى كتابه « أسس الفسيولوچيا » حيث أكد على أهمية المخ فى الوظائف النفسية، وأكد كذلك على أهمية (باثولوچيا المخ) بالنسبة للمرض العقلى، كما أسهم فى هذا التمهيد الطبيب النفسى الألمانى «جريسنجر» Griesinger (١٨١٧ / ١٨٦٨م) فى كتابه الهام « باثولوچيا الأمراض العقلية وعلاجها » ، الذى أصدره عام ١٨٤٥م، حيث أشار إلى أن الطب النفسى عليه أن يقوم على أسس فسيولوچية .

ومهما يكن من أمر فإن النموذج الطبى بدأ بصورة واضحة عند العالم الألمانى «إميل كريلين » Kraepelin (١٨٥٦ / ١٩٢٦م) . فقد أصدر كتابا عام ١٨٨٣م عن «الطب النفسى » أكد فيه على أهمية باثولوچيا المخ فى إحداث المرض العقلى، وساعد كذلك على تقديم دلائل عديدة على صحة وجهة نظره. كما أشار إلى أن هناك مجموعة أعراض تحدث بانتظام ، بحيث يمكن اعتبارها أمثلة Types من الأمراض العقلية، بحيث يمكن التنبؤ بها ، وذلك بالأسلوب نفسه الذى نفكر فيه عندما ندرس الحصبة أو الجدرى والاضطرابات الجسمية الأخرى .

وقد قسم « كريلين » الاضطرابات العقلية إلى مجموعتين رئيسيتين، الأولى الجنون المبكر dementia، والثانية : ذهان الهوس والاكتئاب manic - depressive psychosis. وهذا التقسيم ما يزال يسترشد به فى التصنيفات الحديثة للأمراض العقلية. ومن الجدير بالذكر أن المادة العلمية والدراسات الإكلينيكية التى أوردها «كريلين» تعد عملا علميا عملاقا وتمثل إسهاما رئيسيا فى مجال دراسة المرض العقلى.

ومن الأمور التى أسهمت فى تأكيد النموذج الطبى: الدراسات التى أجراها الطبيب النفسى « كرافت أبنج » Ebing (الذى عاش فى فينا) واهتم عام ١٨٩٧م بدراسة

حول موضوع جنون الشلل العام General Paralysis، الذى هو اضطراب يتميز بطائفة من الأعراض الشبيهة بالذهان والشلل، حيث تمكن « أبنج » من تتبعه خلال تشريح جثث بعض المرضى، وقد تبين إصابة هؤلاء المرضى بانحلال فى أنسجة المخ، ولكن لم يتبين ذلك بصورة مقنعة إلا بعد أن تبين أن جنون الشلل العام سببه مرض الزهرى .

ورغم أننا نؤرخ لعلم النفس فإنه لا يمكن تجاهل النموذج الطبى الذى نلخص إنجازاته - التى أثرت على علم النفس - فيما يلى :

- هدم الأساليب القديمة فى التفكير ، والتى ترجع المرض العقلى إلى التلبس الشيطانى، وتأكيد أهمية الاضطراب العضوى للمخ فى إحداث المرض العقلى .

- التوصل إلى علاجات فعالة لبعض الأمراض العقلية الناتجة عن اختلال عضوى فى المخ، ومثال ذلك جنون الشلل العام .

- أن الأمراض العقلية لها «دورة» مثل الأمراض الجسمية، وعلى هذا لقى مرضى العقول ما هم فى بحاجة إليه من معاملة إنسانية مبنية على أساس المكتشفات العلمية .

- إجراء العديد من البحوث فى العلوم المساعدة للطب مثل التشريح والفسيولوجيا والكيمياء الحيوية، وذلك لتأكيد أهمية دور (باثولوجيا المخ) فى إحداث المرض العقلى .

ولا يسع المؤرخ المدقق لعلم النفس، وهو يؤرخ لعلم النفس المرضى، إلا أن ينظر إلى النموذج الطبى ببالغ الاحترام - رغم ما قد يكون عليه من مآخذ، - إلا أنه مهد الطريق للوصول إلى ما أصبح عليه الطب النفسى من تقدم فى النصف الثانى من القرن العشرين فى العلاجات الطبية، مثل العلاج بالعقاقير والعلاج بالصدمات، ورغم أن هذه العلاجات لا تشفى جميع المرضى شفاءً تاماً إلا أن هذه العلاجات المستمدة من النموذج الطبى من شأنها أن تجعل نسبة لا يستهان بها من مرضى العقول يتخففون من أعراضهم القاسية، بل يمكن لبعضهم - بفضل هذه العلاجات - أن يعيش خارج أسوار المستشفيات ، وحتى نقدر النموذج الطبى حق قدره فلننظر إلى « صورة مستشفى

الأمراض العقلية، حتى القرن الثامن عشر، وصورته فى أواخر القرن العشرين ، وسنجد أن الفرق كبير .

النموذج النفسى :

النموذج النفسى يتضمن الأخذ بتفسير مؤداه أن الاضطراب العقلى والنفسى إنما تتحكم فيه أسباب نفسية مثل القوى اللاشعورية ، أو العقد النفسية ، أو أساليب التعلم المعيبة ، أو خبرات الطفولة المبكرة . وحقيقة الأمر أنه ليس هناك نموذج نفسى واحد بل هناك عدة نماذج تحت مظلة علم النفس. وهذه النماذج مشتقة من نظريات معينة فى تفسير الشخصية، وهذه النظريات سنعرض لها بشيء من التفصيل فيما يلى من فصول الكتاب، ولكن نوجز رأيها هنا بخصوص المرض النفسى والعقلى.

ومن الناحية التاريخية فقد أسهم فى تطوير هذا النموذج النفسى أو هذه النماذج النفسية ، مجموعة من العلماء أو المدارس نتحدث عنهم فى النقط الآتية :

- المسمرية والمغنطة : صاحب هذه الفكرة هو «مسمر» Mesmer (١٧٣٤/ ١٨١٥م) وهو فرنسى عاش معظم حياته فى «فينا» وحصل على درجات ثلاث للدكتوراه من جامعة فينا واحدة فى الفلسفة والثانية فى القانون والثالثة فى الطب. وفى عام ١٧٨٠ م طلع « مسمر » على المجتمع العلمى بادعاء مغنطة الناس magnetizing، ومما لا شك فيه أنه كان دجالا كبيرا حيث استطاع أن يقنع عددا كبيرا من الناس بوجود سائل خفى غامض فى الكون اسمه المغناطيسية الحيوانية، ولو أن هذا السائل الخفى - المزعوم - لم يكن موزعا بالتساوى داخل الجسم فإنه يترتب على «اختلال التوزيع» اضطراب خطير فى سلوك الشخص.

وقد قام « مسمر » بعلاج بعض المرضى (ولعل معظمهم كانوا من المصابين بالهستريا) وكان العلاج - كما يدعى « مسمر» - عن طريق إعادة توزيع السائل الخفى الغامض داخل أجسامهم، ويتم العلاج بالتحدث إليهم بنغمات ملطفة هادئة ، وأن يربت على أجسامهم بقضبان حديدية ، ومما يدعو إلى الدهشة أن بعض المرضى أظهروا

بالفعل تحسنا واضحا، كما صاحب هذا النجاح فى العلاج شعور شديد بالسعادة عند المرضى، وقد تبين بعد ذلك أن هذا العلاج المسمرى العجيب ما هو إلا التنويم المغناطيسى .

ومن الطريف أن نذكر أن كلية الطب بأكاديمية العلوم فى فرنسا كونت لجنة خماسية برئاسة السفير الأمريكى فى فرنسا - بنيامين فرنكلين - عام ١٧٨٤م للبحث فى نظرية « مسمر » وأساليبه العلاجية. وقد أثبتت اللجنة أن نظرية المغنطة المسمرية والأسلوب العلاجى المسمرى هو أمر غير حقيقى، ويتصف بالدجل والبعد عن التفكير العلمى .

- «شاركو» ومدرسة «سالبتريير» : « وشاركوا » Charcot (١٨٢٥/ ١٨٩٣م) أحد كبار أطباء الأعصاب فى عصره، وكان يدير عيادة «سالبتريير» Salpetriere فى باريس. وكان لهذه المدرسة اهتمامات بالتنويم المغناطيسى hypnosis، وقد عارض رأى مدرسة «نانسى» وقال إن الهستريا لها أسباب عضوية تتصل بالمخ، وقد ثبت أن الرأى خطأ ، وكان « شاركو » على قدر كبير من القدرة البحثية والأمانة العلمية، واعترف بخطأ رأيه واتجه كذلك إلى مزيد من الدراسات التى تتعلق بمعرفة العوامل النفسية المؤدية إلى حدوث الاضطرابات العقلية .

ومما هو جدير بالذكر أن «فرويد» درس على يد «شاركو» وتأثر به فى فترة من فترات حياته العلمية .

- «برنهيم» ومدرسة « نانسى » : ومدرسة نانسى Nancy school نسبة إلى مدينة «نانسى » بفرنسا. وتهتم بتفسير موضوع المرض النفسى والعقلى، كما تهتم بدراسة التنويم المغناطيسى الذى ترى أنه حالة من القابلية الشديدة للإيحاء يتم إحداثها صناعيا. ومن أعضاء هذه المدرسة الطبيب الفرنسى «ليبولت» Liebault (١٨٢٣/ ١٩٠٤م). أما مؤسسها فهو الطبيب الفرنسى « برنهيم » Bernheim (١٨٣٧/ ١٩١٩م) وقد ركز «برنهيم» على دراسة وعلاج الهستريا، وأشار إلى أن كلا من الهستريا والتنويم المغناطيسى يرتبطان ارتباطا وثيقا، كما توصل إلى علاج للهستريا عن طريق التنويم

المغناطيسى ، حيث يمكن للمريض المصاب بشلل الذراع الهستيرى أن يحرك ذراعه أثناء التنويم المغناطيسى، وعلى ذلك اعتبرت هذه المدرسة الهستريا كأنها شكل من أشكال التنويم المغناطيسى .

وقد تعددت النماذج النفسية فى تفسير الاضطرابات النفسية والعقلية، ومن أشهر هذه النماذج نموذج التحليل النفسى الذى يفترض أن الاضطراب هو نتيجة القوى اللاشعورية وخبرات الطفولة المبكرة والصراع بين الهو والأنا والأنا الأعلى. ومن ذلك يتوصل «فرويد» إلى طريق للعلاج يسميه التحليل النفسى، يتم عن طريق التداعى الحر وتفسير الأحلام، وهذا النموذج التحليلى النفسى يزدحم بأسماء كبيرة مثل «أدلر» الذى يؤكد على أهمية الشعور بالنقص وأسلوب الحياة، و «يونج » الذى يؤكد على اللاشعور الجمعى والأنماط القديمة وغيرهم . وسنعرض لهم بالتفصيل فى فصل لاحق.

ومن النماذج الشهيرة أيضا النموذج السلوكى الذى يصدر أساسا من دراسات سلوكية، إشراطية لكبار علماء النفس من أمثال « بافلوف » و « واطسون » و «سكنر» وهذه المدرسة ترى أن السلوك عبارة عن استجابات متعلمة . أما السلوك اللاسوى فهو استجابات خطأ متعلمة، وإذا كان السلوك اللاسوى أمرًا متعلما فهو قابل للتعديل عن طريق العلاج السلوكى الذى يتمثل فى أساليب تعليمية جديدة تتم عن طريق تكوين استجابات إشراطية سليمة تحل محل الاستجابات الخطأ . ومن أشهر الأساليب السلوكية الإشراط بالتنفير أو بالكراهية، أو الإشراط الكلاسيكى البسيط، وسنعرض فى فصل قادم للمدرسة السلوكية بشىء من التفصيل .

ومن النماذج النفسية ، نموذج العلاج المعقود على العميل، وصاحبه «كارل روجرز» وهو يقوم على أساس أن العميل هو الأقدر على حل مشكلاته، فالعلاج والنجاح فيه معقود عليه ، وعلى المعالج أن يخلق جوا علاجيا يتسم بالدفء والتسامح ، حيث يشعر المريض بالحرية فى مناقشة مشكلاته، والاستبصار بها، ومن ثم مواجهتها. وسنعرض لمدرسة «روجرز» فى فصل لاحق .

كما أنه بالإضافة إلى ما سبق يوجد العديد من النماذج النفسية، وهذا التعدد وإن

كان فيه إثراء لعلم النفس إلا أنه - مع الأسف - شاهد على أن علماء النفس ليسوا جبهة واحدة، وأن الاختلافات بينهم اختلافات واسعة ، ليس بين كل كل مدرسة وأخرى ، ولكن الخلافات داخل كل مدرسة على حدة. إن كل مدرسة تحاول أن تفسر ظاهرة المرض النفسى والعقلى - وهى ظاهرة محيرة - بعدد من الفروض ثم تضع « برنامجا علاجيا» بناء على تلك الفروض ، وبرغم أن المؤرخ المدقق لعلم النفس يرى أن هذا من شأنه إضعاف « النموذج النفسى » فى تفسير المرض النفسى والعقلى إلا أنه أمر كائن، عليه أن يثبته .

النموذج الاجتماعى الحضارى :

تقدم علما الاجتماع والأنثروبولوجيا فى مطلع القرن العشرين تقدما كبيرا، حيث توجه الاهتمام إلى دراسة تأثر الشخصية فى سوائها واضطرابها بالعوامل الاجتماعية الحضارية مثل: القيم والعادات والتقاليد والأعراف والعلاقات بين أفراد الأسرة وعلاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة الأسرة بالمجتمع . وساد حديث عن وجود تأثير للظروف الاجتماعية على إحداث المرض النفسى والعقلى أو الإسهام فى إحداثه، ومثال ذلك الضغوط الاجتماعية والحضارية وعلاقتها بانتشار الاضطرابات النفسية والعقلية، وعلاقة العوامل الاجتماعية والحضارية بمشكلات نفسية اجتماعية مثل : الجريمة وإدمان الخمور وإدمان المخدرات، وقد أعطت الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية الكثر من النتائج فى هذا الموضوع .

ومن أهم الدراسات الاجتماعية الحضارية التى تمت فيها دراسة بعض المجتمعات البدائية أو شبه البدائية والتى أفرزت النموذج الاجتماعى الحضارى ما يلى:

دراسات « مالينوسكى» : يعد « مالينوسكى» Malinowski (١٨٨٤/ ١٩٤٢م وهو إنجليزى من أصل بولندى) من أقدم علماء الأنثروبولوجيا . ومن أهم كتبه « الجنس والكبت فى المجتمع البدائى » أصدره عام ١٩٢٧م ، وبين فى هذا الكتاب أن فكرة « الصراع الأوديبى » التى أشار إليها «فرويد » لا وجود لها عند سكان جزر

« التروبرياند» Trobriand التى درسها، وأشار إلى أن الصراع «الأوديبى » ليس ظاهرة عامة ، وقد يكون مصاحبا لنظام الأسرة الأبوية ، فى المجتمع الغربى .

و«مالينوسكى » إلى جانب ذلك مؤسس النظرية الوظيفية فى الأنثروبولوجيا. وتدعو نظريته تلك إلى دراسة « الحضارة » من خلال منظور دينامى . وقد اهتم بدراسة المجتمعات البدائية دراسة حقلية متعمقا فى ظواهر مثل العادات والتقاليد والجريمة والسحر والدين .

دراسات « بندكت » : أسهمت « روث بندكت» Benedict (١٨٨٧ / ١٩٤٨م) وهى عالمة أمريكية وأستاذة للأنثربولوچيا بجامعة كولومبيا الأمريكية فى إثراء النموذج الاجتماعى الحضارى ، حيث قامت بدراسات أنثروبولوجية حقلية فى مجتمعات الهنود الحمر فى أمريكا ، كما اهتمت بدراسة الثقافات المعاصرة فى أوربا وآسيا، وركزت على دور الثقافة فى تكوين الشخصية. ومما يجدر ذكره أنها توجهت بكثير من النقد إلى الاتجاهات العنصرية والعرقية التى سادت الفكر الغربى .

ومن أهم دراساتها فى هذا المجال تلك التى صدرت عام ١٩٣٤م بعنوان «الأنثروبولوچيا واللاسواء » حيث بينت أن ما يعد سويا فى مجتمع ، قد لا يعد سويا فى مجتمع آخر ، حيث لاحظت أن الأعراض التخشبية (وهى من أعراض الفصام) تلقى الاحترام والتقدير عند بسطاء الناس فى المجتمعات البدائية . وعلى ذلك فإن مفهوم اللاسواء يختلف من حضارة إلى حضارة أخرى .

دراسات « ميد » : كذلك أسهمت « مرجريت ميد » Mead (١٩٠١ / ١٩٧٨م) - تلميذة « روث بندكت » وأستاذة علم الأنثروبولوچيا بجامعة كولومبيا - فى تأكيد النموذج الاجتماعى الحضارى، حيث قامت بدراسات عن أساليب تنشئة الأطفال ودراسة أثر الثقافة على الشخصية فى المجتمعات البدائية فى «ساموا » و « غينيا الجديدة » .

ومن أهم دراساتها فى هذا المجال تلك التى صدرت عام ١٩٤٩ بعنوان « الذكر والأنثى » حيث بينت فيه أن مفهوم الذكورة ومفهوم الأنوثة إنما يرتبطان بالعوامل

الحضارية أكثر من ارتباطهما بالنواحى الولادية أو البيولوجية، ذلك أن المجتمع هو الذى يحدد الدور الذي يلعبه كل جنس وليس الفسيولوجيا .

وعلى هذا توصل علماء الأنثروبولوجيا بناء على دراساتهم الحقلية إلى أن كل حضارة هى جزيرة بذاتها ، وأن ما ينطبق على حضارة بعينها، قد لا ينطبق على حضارة أخرى ، كما أن هذه الدراسات الأنثروبولوجية أدت إلى ظهور ما يسمى النسبية الحضارية cultural relativism فيما يخص السلوك اللاسوى ، وبناء على ذلك فإن كل حضارة تعد وحدة فى ذاتها، وأنه ليس هنا موازين أو معايير عامة يمكن أن تطبق على كل المجتمعات - ومثال ذلك أنه أثناء محاكمات « نورمبرج» الشهيرة والتى عقدت بعد الحرب العالمية الثانية لمحاكمة القادة الألمان - على أساس أنهم مجرمو حرب - تبين أن مفهوم الإجرام ضد الإنسانية هو مفهوم يصف سلوك هؤلاء القادة من وجهة نظر الحلفاء، أما من وجهة نظرهم الخاصة، ومن وجهة نظر الشعب الألمانى فهم فى صورة « البطل القومى » .

ومع تقدير المؤرخ المدقق لعلم النفس لأهمية هذا النموذج الاجتماعى الحضارى، إلا أن النسبية الحضارية لا تصلح أساسا وحيدا لتفسير المرض النفسى والعقلى؛ ذلك لأن هناك أمراضًا عقلية معينة - كالفصام مثلا - لها أسباب متعددة وأعراض متعددة تتشابه فى المجتمعات ، سواء أكانت مجتمعات متقدمة أم بدائية . إن النموذج الاجتماعى الحضارى يصلح « كنموذج مساعد » فى تفسير المرض النفسى والعقلى، ولكن لا يصلح بحال « كنموذج وحيد » لهذا التفسير .

نحو نموذج شامل :

كلما تعددت البحوث والدراسات التى تتناول دراسة السلوك الشاذ، وكلما تنوعت هذه البحوث وشملت التطورات والمجالات المختلفة من عضوية ونفسية فإن هذا التنوع يقربنا أكثر من فهم السلوك الشاذ أو السلوك المرضى، ومثال ذلك أن مرضى جنون الشلل العام - وأساسه عضوى - يلاحظ أن بعض المرضى يغلب عليهم الاكتئاب والبعض الآخر يغلب عليهم المرح ، رغم تشابه العطب الذى يصيب الدماغ. وكذلك فى

حالات الاضطراب العقلى الذى يحدث بسبب تلف فى المخ ناتج عن تصلب شرايين الدماغ فى الشيخوخة، فإننا نلاحظ أن بعض المرضى يصيبهم قدر كبير من اضطراب السلوك رغم بساطة إصابة الدماغ، بينما بعض المرضى الآخرين يصيبهم أعراض معتدلة رغم التلف الزائد نسبيا فى الدماغ .

وقد اتجهت الأنظار إلى القول بأن الاستجابات السيكولوجية لتلف الدماغ إنما يمكن تفسيرها بصورة دقيقة فى إطار رؤية إكلينيكية شاملة للمريض، وتشمل هذه الرؤية - إلى جانب النواحى العضوية - ظروفه الأسرية والحياتية. وبالإضافة إلى ذلك فقد تلاحظ أنه بالنسبة لبعض حالات الذهان الوظيفى - غير عضوى المنشأ - كان للوسائل الطبية مثل الصدمات الكهربائية أو العقاقير آثار سيئة، هذا إلى جانب أنه لوحظ أن أساليب العلاج للأمراض النفسية ، سواء أكانت أساليب طبية أم نفسية أم اجتماعية ، تلقى نجاحا متفاوتا من بيئة إلى أخرى .

ومثل هذه الاعتبارت أدت إلى ظهور نموذج جديد يسمى النموذج الشامل أو الاتجاه الشامل Interdiscipilinary approach وهذا الاتجاه الشامل يهدف إلى الأخذ بتعدد الأسباب والعوامل التى يفسر بها الاضطراب العقلى ، فيجمع بين العوامل العضوية والنفسية والاجتماعية والحضارية فى « رؤية إكلينيكية شاملة » وبالطبع عندما ندرس حالة كل مريض على حدة فإن واحدا من هذه قد يغلب على العوامل الأخرى. فمثلا يفسر سبب مرض الاكتئاب تفسيرا يختلف من مريض إلى آخر، أى يغلب عامل معين على عوامل أخرى فى كل حالة على حدة .

ومن المأمول أن يؤدى هذا الاتجاه الشامل إلى تعاون وإسهام مجالات مختلفة مثل علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا من جهة والعلوم الطبية مثل الطب النفسى وطب الأعصاب والكيمياء الحيوية من جهة أخرى فى الوصول إلى مزيد من النتائج عن أسباب الاضطرابات العقلية، وإلى التوصل أيضا إلى أساليب علاجية أكثر نجاحا . وعلى جميع المستويات البحثية والتنفيذية والممارسية، فإن التعاون واجب بين الأطراف المختلفة القائمة على دراسة هذه المشكلة البالغة الصعوبة، وهى مشكلة الاضطراب

العقلى، هذه الأطراف هى الطبيب النفسى والأخصائى النفسى وكافة المشتغلين فى مجال الصحة العقلية، وذلك بقصد الوصول إلى أنجح الوسائل العلاجية وأنجع الوسائل الوقائية .

حاشية عن تاريخ علم النفس الإكلينيكى :

علم النفس الإكلينيكى clinical psychology هو فرع من فروع علم النفس يتناول الاستفادة من المعارف والنظريات النفسية فى مجال علاج المرضى بالأمراض النفسية والعقلية، ويقوم الأخصائى النفسى الإكلينيكى بممارسات إكلينيكية تدور حول دراسة حالة المريض وإجراء الاختبارات النفسية له مثل اختبارات الذكاء والشخصية وكذلك الاشتراك فى فريق العلاج .

ويمكن أن نعد تعريف الجمعية الأمريكية لعلم النفس الإكلينيكى والذى تمت صياغته عام ١٩٣٥م إعلانًا عن ميلاد هذا الفرع التطبيقى من علم النفس بصورة رسمية، ومن الطريف أن هذا التعريف رغم أنه «قديم» إلا أنه لا يختلف كثيرا عن التعريفات الشائعة الآن. ومنطوق هذا التعريف يقول « علم النفس الإكلينيكى فرع تطبيقى من علم النفس يهدف إلى تحديد خصائص سلوك الفرد - وذلك باستخدام وسائل القياس والتحليل والملاحظة ومن خلال تكامل المعلومات التى تجمع عن طريق الفحص الطبى والدراسات الاجتماعية لتاريخ الحياة. وهذا كله يؤدى إلى اقتراحات وتوجيهات تمكن من تحقيق توافق الفرد » .

ويورد « كندال » و «نورتن فورد » أحداثا هامة أو علامات على الطريق فى تاريخ عن النفس الإكلينيكى على النحو التالى :

* فى مجال القياس النفسى الإكلينيكى :

- عام ١٨٨٩ يصدر « جالتون » كتابه الوراثة والعبقرية بحيث يفتح الباب لدراسة الفروق الفردية .

- عام ١٨٩٠ يقدم « جيمس ماكين كاتل » لفظة الاختبار العقلى .

- عام ١٨٩٦ يقوم « ويتمر » بتأسيس أول عيادة نفسية فى «بنسلفانيا».

- عام ١٩٠٥ إصدار الطبعة الأولى من مقياس « بينيه - سيمون » للذكاء فى فرنسا .

- عام ١٩١٥ توصية الجمعية النفسية الأمريكية APA بأن الأخصائيين النفسيين هم وحدهم المؤهلون لتطبيق الاختبارات النفسية .

فى الأعوام بين ١٩١٥ - ١٩١٨ قيام عدد من علماء النفس بإعداد اختبار «ألفا» واختبار « بيتا » - والأول اختبار لفظى والثانى اختبار غير لفظى لقياس الذكاء (قمنا بتقنين طبعة معدلة من هذا الاختبار فى المملكة العربية السعودية الشقيقة) .

- عام ١٩١٦ قيام « تيرمان » بإعداد طبعة أمريكية من مقياس «بينيه - سيمون» .

- عام ١٩٢١ نشر اختبار « رورشاخ» الإسقاطى لبقع الحبر.

- عام ١٩٢٥ إصدار « جيزل » جداول النمو والتى تبين مظاهر النمو الطبيعى للأطفال من سن ثلاثة شهور حتى ثلاثين شهرا .

- عام ١٩٣٥ نشر «دول» اختبار «فاينالد» للنضج الاجتماعى .

- عام ١٩٣٧ قيام «تيرمان» وزميلته «ميريل» بإصدار طبعة جديدة من اختبار «بينيه » .

- عام ١٩٣٨ ظهور اختبار « بندر جشطلت »

- عام ١٩٣٩ ظهور اختبار « وكسلر بلفيو »

- عام ١٩٤٣ ظهور اختبار الشخصية المتعدد الأوجه .

- فى عام ١٩٤٧ ظهور بطارية « هالستيد » لقياس الوظائف العصبية النفسية .

- فى عام ١٩٤٩ ظهور اختبار «وكسلر» لقياس ذكاء الأطفال .

* فى مجال العلاج النفسى :

- فى عام ١٧٩٣ الإصلاحات التى أدخلها «بينل» على أساليب الإيداع فى مستشفيات الأمراض النفسية والعقلية .

- فى عام ١٧٩٦ إنشاء «تيوك» مؤسسة «يورك» الإيوائية لمرضى العقول .

- فى عام ١٨٩١ اهتمام «برنهيم» بالعلاج النفسى عن طريق التنويم المغناطيسى.

- فى عام ١٩٠٠ إسهامات «فرويد» فى موضوع تحليل الأحلام والتداعى الحر فى مجال العلاج النفسى .

- فى عام ١٩٠٩ قيام « هيلى » بتأسيس معهد علمى لدراسة السيكوباتية وانحراف الأحداث .

- فى عام ١٩١٩ استخدام « مكدوجل » أسلوب التعاطف الوجدانى Sympathatic rap-port لعلاج الجنود المصابين بالخبرة الصدمية فى المعارك أثناء الحرب الكونية الأولى .

- فى عام ١٩٢٠ – ١٩٢٢ دراسات « واطسون » عن « الخوف الشرطى » .

- فى عام ١٩٢٨ اهتمام «أنا فرويد» بأسلوب العلاج النفسى باللعب عن الأطفال .

- فى عام ١٩٣٢ ظهور تعبير العلاج الجمعى على يد « مورينو »

- فى عام ١٩٤٠ ظهور أسلوب العلاج الجمعى على يد « سلافسن »

- فى عام ١٩٤٢ ظهور أسلوب العلاج المعقود على المستفيد على يد « روجرز »

- فى عام ١٩٥١ ظهور أسلوب العلاج الجشطلتى على يد « برلز » .

- فى عام ١٩٥٣ ظهور أسلوب العلاج العقلانى على يد «فرانكل»

- فى عام ١٩٥٣ يقدم « سكنر » برنامج عمل لأسلوبه فى العلاج السلوكى بالأساليب الإشراطية .

- فى عام ١٩٥٨ ظهور أسلوب « العلاج الأسرى » على يد « إكرمان »

- فى عام ١٩٥٨ « ولبه » يقدم أسلوب التطمين التدريجى .

- فى عام ١٩٥٨ ظهور أسلوب العلاج العقلانى الانفعالى على يد «أليس».

- فى عام ١٩٦٤ ظهور أسلوب العلاج المعرفى لمرضى الاكتئاب على يد «بك» .

الفصل الثامن
تاريخ علم النفس الاجتماعى

علم النفس الاجتماعى Social Pschology هو فرع من فروع علم النفس يهتم بدراسة العلاقة بين الفرد والمجتمع، ويدرس موضوعات مثل التنشئة الاجتماعية والاتجاهات والقيم والرأى العام والقيادة وديناميات الجماعة .

ويرجع تاريخ علم النفس إلى الدراسات الفلسفية القديمة عند «أفلاطون» وعند «أرسطو» وفى العصور الوسطى عند علماء المسلمين من أمثال « الفارابى » و« ابن خلدون » . أما علم النفس الاجتماعى بمعناه الحديث فيرجع إلى أوائل القرن العشرين على يد العديد من العلماء بعضهم من داخل المدارس مثل « مكدوجل » صاحب المدرسة الغرضية و «ليفين» صاحب مدرسة المجال نتحدث عنهم فى مواضع قادمة والبعض الآخر من «خارج المدارس » نتحدث عن أهم وجوههم فى النقاط التالية :

جاك جان روسو Rousseau (١٧١٢ / ١٧٧٨م) :

فرنسى – فيلسوف ومنظر اجتماعى عاش حياته متنقلا بين سويسرا وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا. أهم كتبه « العقد الاجتماعى » وكتاب «إميل» أو « فى التربية» نشرهما عام ١٧٦٢م .

وقد أثر على التفكير فى العلوم الإنسانية بوجه عام، وفى الاجتماع بوجه خاص ، وذلك بنظريته فى تفسير نشأة الحياة الإنسانية، حيث يرى أن الإنسان كان يعيش حياة الغاب، وكان يرضى حاجاته الطبيعية بصورة عفوية ، وكان طيبا بالطبع،

ولكن بسبب الظروف الطبيعة القاسية مثل الجدب أو البرد أو القيظ اضطر الأفراد إلى تعاون بعضهم بعضا، لتوفير القوت ، وعن طريق هذا التعاون ظهرت اللغة والزراعة والصناعة، وظهر التناقض والشر والعدوان. وهكذا أصبح الإنسان الطيب بالطبع فاسدا بالاجتماع ، ولا صلاح لمفاسد الاجتماع إلا عن طريق تهيئة الفرد بالتربية الصالحة ، وهذه التربية الصالحة تتطلب أن يترك الطفل لينشأ فى تلقائية، وأن تكون مهمة المربى معاونته فى تربية نفسه بنفسه .

وهو كذلك يرى أن أفراد المجتمع يقبلون العيش فيه والانصياع لأوامره والنزول عن رغباتهم الفردية فى سبيل أن ثمة «عقدا اجتماعيا » تتحقق فيه المصلحة العامة للمجتمع، وتتوافر فيه الحماية لأعضائه، وبالتالى فإن الفرد يتنازل عن شىء ما مقابل تحقيق شىء آخر أكثر فائدة ، وهذا هو أساس قيام الحياة الاجتماعية فى نظره .

كما يؤكد « روسو » أن عاطفة الإنسان « الطيب » هى المرشد الأمين والكافى لتحقيق السعادة، ويضع « روسو » المبدأ الذى يقول « كل ما أحسه شرا فهو شر ، الضمير خير الفقهاء » حيث إن العاطفة هى السبيل الأمثل للحكم على الأمور، أما العقل فهو آلة .

ورغم تهافت هذه الآراء لأنها من قبيل التفكير الأرائكى « اليوتوبى »، الذى تعوزه الدلائل التجريبية، إلا أن كتابات « روسو» أثرت على التفكير الأوربى تأثيرًا كبيرًا . والذى يهمنا فى هذا المقام أنه لفت الأنظار إلى موضوعات يعالجها علم النفس الاجتماعى الحديث، وأهمية الأساليب التربوية التى تبتعد عن تقييد سلوك الطفل .

هربرت سبنسر Spencer (١٨٢٠ / ١٩٠٣م) :

إنجليزى - (أشرنا إليه سابقا) كان أصلا مهندسا للسكك الحديدية ولكنه اتجه إلى الصحافة والتأليف فى مجال الدراسات الاجتماعية. ويعتبر من كبار علماء الاجتماع فى العصر « الفكتورى » ويرجع إسهامه فى علم النفس الاجتماعى

إلى اهتمامه الشديد بالأفكار التطورية سواء على المستوى الحيوى أو الاجتماعى. ومن أهم الآراء التى توصل إليها خلال دراساته فكرة البقاء للأصلح التى تبناها «دارون» فيما بعد. وقد اعتقد «سبنسر» أن البقاء للأصلح هو قانون يسير حياة أفراد المجتمع، وقد لقيت هذه الفكرة قبولا وحماسة فى الأوساط الفكرية فى أمريكا لما تدعو إليه فكرة البقاء للأصلح من ليبرالية .

« والتر باجوت » Bagehot (١٨٢٦ / ١٨٧٧م) :

إنجليزى . عالم اقتصادى وصحافى ، تاثر تاثرا كبيرا بكتاب « أصل الأنواع » الذى أصدره « دارون » عام ١٨٥٩م ، الذى عرض فيه «دارون» لنظرية النشوء والارتقاء. وقد ابتكر نظرية تطورية فى علم النفس الاجتماعى أشار إليها فى كتابه الذى أصدره عام ١٨٦٩م بعنوان « الفيزياء والسياسة » ، وهذه النظرية تتناول عملية « التقليد »، حيث يرى «باجوت» أن البشر يميلون إلى تقليد الأقوى ، بمعنى أننا نميل - لا شعوريا - إلى تقليد الآخرين فنقول ما يقولون ونفعل ما يفعلون . هذا على مستوى الأفراد ، أما على مستوى الأمم فإن الأمم القوية تغلب الأمم الضعيفة ، كما أن الأمم الضعيفة المغلوبة تميل إلى تقليد الأمم الغالبة . أما من الناحية التطورية فإن «باجوت » يرى أن التقدم هو زيادة تكيف الإنسان مع البيئة .

جوستاف لى بون Le Bon (١٨٤١ / ١٩٣١م) :

فرنسى - كرس حياته لدراسة علم النفس الاجتماعى وترجمت العديد من أعماله إلى اللغة العربية اشتهر بكتابه « الحشد : دراسة فى العقل الجمعى » الذى أصدره عام ١٨٩٥م .

ومن أهم آراء « لى بون » أن عقلية الجماهير التى تسيطر عليها الانفعالات والعواطف إنما تفرز أفكارها من خلال عدوى الانتقال السريع للشعور من شخص إلى آخر. وهى ظاهرة يصعب تفسيرها وإن كان السبب الرئيسى فى حدوثها هو القابلية للإيحاء، كذلك يتميز موقف الحشد بانسياق من الفرد إلى هذا الموقف الحشدى التى يتسم بعلامات ثلاث هى الإجماع والانفعالية ، واللاعقلانية .

وخرج «لى بون» من ذلك بفكرة « العقل الجمعى Group mind ويقال أن « فرويد » تأثر بهذه الفكرة تأثرا مذكورا .

« جبريل تارد » Tarde (١٨٤٣ / ١٩٠٤م) :

فرنسى - اهتم بدراسة علم الاجتماع وعلم الجريمة، عمل أستاذا للفلسفة فى « كلية فرنسا »، وهى واحدة من أرقى المعاهد الفرنسية، وفى عام ١٨٩٠م أصدر كتابا بعنوان « قوانين المحاكاة »، حيث اهتم بدراسة المحاكاة والخيال والمعارضة من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى ، على أساس أن هذه العمليات الثلاث هى العمليات الأساسية فى التفاعل الاجتماعى الذى عده الظاهرة الاجتماعية الأولية ، كما اعتبر أن المحاكاة هى الواقعة الاجتماعية الأساسية. كذلك ربط بين السلوك الجمعى والتنويم المغناطيسى حيث قال : إن المحاكاة هى شكل من أشكال التجوال النومى .

ومما يجدر ذكره أن « تارد » ألف كتابا عام ١٨٩٨ م بعنوان « دراسات فى علم النفس الاجتماعى »، ولكنه بالطبع لا يقاس بما يعده جمهرة مؤرخى علم النفس « الكتاب الأول » فى علم النفس الاجتماعى والذى أصدره « مكدوجل » عام ١٩٠٨م.

ماكس فيبر Weber (١٨٦٤ / م١٩٢٠) :

ألمانى - من علماء الاجتماع ، ولكنه اشتهر بدراسات فى علم النفس الاجتماعى تتعلق بموضوع الشخصية الجذابة أو الكارزمية Charisma وهو تعبير ذائع الصيت على مستوى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى، والكارزمية هى شعور من الأتباع تجاه القائد بأنه شخص له جاذبية خاصة وقدرة طاغية على التأثير. وكأن القائد هو « السوبرمان» حيث يستطيع القائد أن يسيطر على الأتباع من خلال هذا التأثير الانفعالى. إن « الكارزمية » سحر غلاب وجاذبية طاغية وهالة تحيط بالقائد تجعل منه شخصا محبوبا ومطاعا وتجعل الأتباع ينخرطون تحت لوائه عن إيمان وعقيدة وحب وولاء وشعور بالاندماج تحت وهج تأثيره الساحر

الغلاب. ومن الآثار الجانبية السيئة « للكارزمية » عجز الجماهير من السوقة والعامة والدهماء عن « رؤية» عيوب هذا القائد الكارزمى .

«جراهام ولاس » Wallas (١٨٥٩ / ١٩٣٢م) :

إنجليزى . اهتم بدراسات علم النفس الاجتماعى حيث صاغ نظرية فى الغرائز ، كما أصدر عام ١٩١٤ م كتابا بعنوان « المجتمع العظيم » ، و أصدر عام ١٩٢١م كتابا بعنوان « الميراث الاجتماعى » ، وهو متأثر - شأنه فى ذلك شأن معظم مفكرى عصره - بالأفكار التطورية .

والفكرة الأساسية فى نظريته عن الغرائز تقول : إن الإنسان مهيأ من الناحية البيولوجية لكى يعيش فى المجتمع بمساعدة الميراث الاجتماعى، كما أن الإنسان غير مهيأ من الناحية البيولوجية للعيش فى المجتمع دون هذا الميراث ، وعلى ذلك فالإنسان من حيث كونه كائنا بيولوجيا أصبح طفيليا Parasitic يعيش على الميراث الاجتماعى . وأضاف أن السلوك الاجتماعى يجب أن يوصف فى إطار الميراث الاجتماعى لا أن يوصف فى إطار الغريزة . وهو يقصد بالميراث الاجتماعى Social hertaige كل ما يرثه الفرد من المجتمع الذى يعيش فيه من تقاليد وأعراف وقيم وأساليب سلوكية .

«فردريك بارتليت Bartlett (١٨٨٦ / ١٩٧٩) :

إنجليزى - عمل أستاذا بجامعة « كمبردج » منذ ١٩٢٢ حتى اعتزاله فى عام ١٩٥٢ . وقد أصر هذا العالم على ألا ينتمى إلى مدرسة معينة أو اتجاه معين، وكان يقول عن نفسه: إنه « دارس لعلم النفس فى كمبردج » ويعده بعض المؤرخين من أهم شخصيات علم النفس الإنجليزى فى النصف الأول من القرن العشرين .

ومن الأمور التى ركز عليها « بارتلت » دراسة العمليات العقلية، وأثر العوامل الاجتماعية فى هذه العمليات ، ومن أهم كتبه « التذكر : دراسة فى علم النفس

التجريبى والاجتماعى » أصدره عام ١٩٣٢ م ، وكتاب « التفكير : دراسة اجتماعية تجريبية » أصدره عام ١٩٥٨ م .

وبالنسبة للعوامل الاجتماعية النفسية المؤثرة فى التذكر أشار « بارتلت » إلى أن التذكر هو عملية تتضمن إعادة البناء، والدليل على ذلك أن ما يحدث أثناء عملية التذكر يتضمن اتجاهات الشخص نحو المادة موضوع التذكر، أى أن الخبرة التذكرية تتأثر بعوامل نفسية اجتماعية مثل الخبرة الثقافية للفرد واهتماماته الاجتماعية وانفعاليته العامة .

وبالنسبة لعملية التفكير فإنه يرى أن التفكير هوأساسا عملية لها خلفية اجتماعية ، ولا يمكن له أن يستمر دون وجود مثيرات فى المحيط الخارجى .

وقد لقى « بارتلت » العديد من مظاهر التكريم ومنها على سبيل شهادات فخرية من عديد من جامعات العالم مثل جامعة « أثينا » وجامعة « أدنبرة » وجامعة « لندن » وجامعة « إكسفورد » . ويقال أنه قدم لبلاده أجل خدمات إذ حول اهتماماته العلمية إلى خدمة المجهود الحربى أثناء الحرب الكونية الثانية .

«فلويد ألبورت » Allport, Floyed (١٨٩٠ / -١٩٧٨م) :

أمريكى – ولد فلويد ألبورت فى إحدى مدن ولاية « وسكونسن » و حصل على الماجستير من جامعة هارفارد عام ١٩١٤ وقطع دراسته فترة قصيرة حيث خدم فى صفوف القوات المسلحة الأمريكية إبان الحرب الكونية الأولى ثم عاد إلى جامعة « هارفارد » ليحصل على الدكتوراه عام ١٩١٩ .

ومن أهم إسهاماته إصداره عام ١٩٤٩ كتابه الكلاسيكى الذائع الصيت « علم النفس الاجتماعى » . ويغلب على هذا الكتاب المسحة السلوكية التى سادت علم النفس الأمريكى فى النصف الأول من القرن العشرين .

وقد تأثر « فلويد ألبورت » بعالم النفس الألمانى الأصل الأمريكى الإقامة « هجو منستربرج » تأثرا كبيرا . وقد عمل بجامعة « هارفارد » ثم جامعة «كارولينا

الشمالية » ولكن الشطر الأكبر من حياته العلمية قضاه فى جامعة « سيراكوز » فى المدة من ١٩٢٤ حتى اعتزاله ١٩٥٧ .

(هو الشقيق الأكبر لعالم النفس «جورن ألبورت» الذى نتحدث عنه فى موضع قادم) .

«جاردنر مورفى » Murphy (١٨٩٥ / ١٩٧٩م) :

أمريكى - من مؤسسى علم النفس الاجتماعى، حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا الأمريكية عام ١٩٢٣ وبقى فى جامعة كولومبيا معظم حياته العلمية حتى ١٩٤٠ ثم انتقل إلى كلية « نيويورك » وبقى فيها حتى عام ١٩٥٠ وأثناء عمله بجامعة « كولومبيا » حصل على مهمة عملية فى جامعة « هارفارد» فى المدة من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٥ .

ويعزى إلى « مورفى » أنه خلال العشرينات من هذا القرن قام بتدريس مقرر تخصصى تحت عنوان « تاريخ علم النفس الحديث » ، وكانت مادة هذا المقرر كتابه الكلاسيكى الذي أصدر طبعته الأولى عام ١٩٢٩م بعنوان « مقدمة تاريخية لعلم النفس الحديث » وهو الكتاب الثالث فى هذا الموضوع (مما يذكر أن الكتاب الأول هو كتاب « تاريخ علم النفس » أصدره «برت» Brett أستاذ الفلسفة بجامعة « تورنتو» عام ١٩٢١م - وبعده بشهور صدر كتاب « بورنج » Boring «تاريخ علم النفس التجريبى » فى طبعته الأولى) .

وقد اهتم « مورفى » - إلى جانب اهتماماته العديدة - بدراسة موضوعات تتناول العلاقة بين الدوافع والحاجات النفسية للفرد والعمليات الإدراكية ، حيث كان الاهتمام منصرفا إلى دراسة العمليات الإدراكية من وجهة نظر علم النفس التجريبى فقط دون الالتفات إلى الاعتبارات الدوافعية، ومن دراساته الشهيرة أيضا دراسته عن أثر الاتجاهات على التذكر، وذلك بأن قاس عملية التذكر عند مجموعتين المجموعة الأولى من أفراد يكرهون الروس والمجموعة الثانية من أفراد يحبون الروس، وعرض على المجموعتين « مادة » تتضمن عبارات بعضها يقدح

الروس والبعض الآخر من العبارات يمدح الروس ، وتبين أن المجموعة الأولى الكارهة للروس كانت تتذكر العبارات « القادحة » أكثر . أما المجموعة الثانية المحبة للروس فكانت تتذكر العبارات المادحة أكثر. أى أن كل مجموعة تتذكر ما يتفق مع اتجاهاتها، وقد عرض دراسته فى كتابه الشهير الذى صدر عام ١٩٣٧م بعنوان « علم النفس الاجتماعى التجريبى » .

ويقال أنه كان محاضرا متميزا يخلب ألباب المستمعين شأنه فى ذلك شأن رجالات علم النفس العظام، وتخرج على يديه علماء كبار مثل «ليكرت» و«نيوكمب» و«مظفر شريف » .

مظفر شريف Sherif (١٩٠٦ / ١٩٨٨م) :

تركى - هو مظفر شريف بازغلو - تركى الأصل أمريكى بالتجنس . سافر إلى أمريكا عام ١٩٢٩ بعد حصوله على درجة الماجستير من جامعة « استانبول » ثم حصل على الماجستير مرة ثانية من «هارفارد » عام ١٩٣٢ حيث سافر إلى ألمانيا للدراسة على يد عالم النفس الألمانى الشهير « كهلر » ولكن حاق اضطهاد النازى برجالات العلم (سنعرض لذلك تفصيلا عند الحديث عن مدرسة الجشطلت) مما دفعه للعودة إلى أمريكا حيث استقر فى جامعة «كولومبيا » ليدرس على يد « جاردنر مورفى » .

وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٥ وكان موضوع الرسالة « سيكولوجية المعايير » وأصبحت هذه الرسالة فور نشرها عام ١٩٣٦ « تحفة نادرة » من تحف علم النفس الاجتماعى .

وعندما عاد إلى وطنه الأم « تركيا » لقى هناك - من أسف - عنتا شديدا بسبب انتقاده للنازى (لاحظ أيها القارئ الكريم أن «تركيا» كانت حليفة لألمانيا النازية إبان الحرب الكونية الثانية) وقد قضى هذا العالم الفذ عدة شهور من عام ١٩٤٤ فى السجن (وابؤساه) . ولكن عارفى فضله من أركان علم النفس الأمريكى

وعلى رأسهم « جاردنر مورفى » جعلوا السلطات فى الولايات المتحدة الأمريكية تمارس ضغطا شديدا على الحكومة التركية ليخرج مظفر شريف من السجن ويعود إلى أمريكا .

وخلال حياته العلمية العريضة عمل فى العديد من المراكز العلمية والجامعات العريقة، ولقى الكثير من مظاهر التكريم مما هو أهل له، أما أعماله العلمية فهى غزيرة وتزيد على ثمانين عملا فى مجالات علم النفس الاجتماعى .

ومن تجاربه المأثورة والتى تدأب على ذكرها مراجع علم النفس الاجتماعى - تلك التجربة التى أجريت بغرض معرفة أثر الضغوط الاجتماعية على الإدراك وبيان هذه التجربة أن نقطة ضوئية صغيرة ثابتة فى حجرة مظلمة تماما فإنه بعد التحديق فيها لعدة دقائق يبدو للناظر أنها تتحرك - وهذا بالطبع من قبيل الخداعات الإدراكية المعروفة فى علم النفس التجريبى باسم الحركة الظاهرية Autokinetic Phenomenon . وطبقت التجربة على مرحليتن مرحلة التطبيق الفردى كانت تقديرات الأفراد لمدى حركة النقطة الضوئية متفاوتة فيما بينهم إلى حد كبير (نكرر أنه لا توجد حركة ولكن خداع بصرى) أما فى حالة التطبيق الجمعى فإنه حدث تقارب فى تقديرات نفس الأفراد لمدى حركة النقطة الضوئية لأن هؤلاء الأفراد عدلوا تقديراتهم بسبب تأثرهم بأحكام الآخرين. وهذه التجربة « الكلاسيكية » تبين أثر العوامل أو الضغوط الاجتماعية على عملية الإدراك .

«سليمان آش» Asch (١٩٠٧/ -) :

أمريكى - حصل «آش» على الدكتوراه من جامعة «كولومبيا» عام ١٩٣٢. وهو يمثل أصدق تمثيل تأثير مدرسة « الجشطلت » الألمانية على دراسات علم النفس الاجتماعى. ودراساته عن دور العوامل الاجتماعية فى التأثير على العملية الإدراكية تؤكد على خصوبة الأفكار الجشطلتية وقدرتها على التأثير فى دراسات علم النفس الاجتماعى التجريبى .

وفى منتصف القرن العشرين صمم «آش» تجارب عن أثر إجماع الأغلبية على استقلال رأى الفرد (أصبحت هذه التجارب فيما بعد حتى الآن من كلاسيكيات علم النفس الاجتماعى) ومن تلك التجارب تجربة بسيطة تقوم على التمييز البصرى للأطوال، وقامت التجربة على مجموعات من الأفراد تتراوح أعدادهم من ٧ - ٩ أفراد يؤدون تجربة بسيطة فى تمييز الأطوال، حيث طلب من هؤلاء الأفراد مقارنة طول أحد الخطوط بأطوال ثلاثة خطوط أخرى معطاة وأحد هذه الخطوط الثلاثة مساو بالضبط للخط الأصلى والخطان الآخران يختلفان اختلافا واضحا عن الخط الأصلى .

وكانت التجربة من قبيل التجارب الخداعية حيث إن هؤلاء الأفراد تقابلوا جميعا مع المشرف على التجربة وطلب منهم الإدلاء باستدلالات خطأ وإجماعية فى عملية مقارنة الأطوال ما عدا شخص و احد هو محل التجربة الذى لا يدرى عن هذه الترتيبات و لا يعرف أنه مستهدف بعملية الخداع. وتجرى تجربة تمييز الأطوال ويبدى هؤلاء الأفراد أحكاما خطأ فى عملية تمييز الأطوال بحيث يشعر الشخص محل التجربة أن ثمة تضاربا بين تقديرات هؤلاء الأفراد وبين ما يراه بعينى رأسه، والطريف فى الأمر أن الشخص محل التجربة تأثر فى بعض أحكامه بتقديرات هؤلاء بحيث «كذب» مشاهداته الحسية، وذلك بسبب العوامل الاجتماعية المحيطة به والتى تمثل رأى أغلبية تبدى أحكاما خطأ . مما يدل على أن رأى الأغلبية يؤثر على رأى الفرد حتى فى أمور حسية ملموسة .

فيليب زمباردو Zimbardo (١٩٣٣ / -) :

أمريكى - حصل على الدكتوراه من جامعة «ييل» الأمريكية عام ١٩٥٩ . عمل فى جامعة نيويورك ثم استقر منذ عام ١٩٦٨ استاذا ضليعا فى جامعة « ستانفورد» العريقة وله تجربة تعتبر من التجارب الكلاسيكية فى علم النفس الاجتماعى .

أجريت التجربة لدراسة أثر السجن على الحالة النفسية للنزلاء . وكان السجن الذى أجريت فيه هذه التجربة عبارة عن قبو بقسم علم النفس بجامعة

ستانفورد الأمريكية حيث تمت تهيئة القبو ليكون أشبه بالسجن إذ قسم القبو إلى زنزانات مزودة بالقضبان الحديدية وزودت الزنزانات بكاميرات المراقبة وأعلن عن طلب « متطوعين » فى تجربة لدراسة الأثر النفسى للإقامة بالسجن ». بحيث يتقاضى المتطوع مكافأة قيمتها ١٥ دولارا فى اليوم (أجريت التجربة عام ١٩٧١ وكان المبلغ فى ذلك الوقت له قيمة كبيرة) .

وقد تقدم للتطوع ٧٥ طالبا من طلاب الجامعة طبقت عليهم مجموعة من الاختبارات النفسية المتعمقة بهدف استبعاد المشتبه فى كونهم مضطربين انفعاليا، وبعد عملية الغربلة هذه أصبح عدد المتطوعين المقبولين فى التجربة ٢٠ طالبا . وقد قسم هؤلاء عشوائيا إلى مجموعتين . المجموعة الأولى مكونة من عشرة طلاب اعتبروا بمثابة « حراس السجن » . أما العشرة الآخرون فقد اعتبروا «نزلاء السجن» ولم تعط أى مجموعة تعليمات معينة للتصرف سواء بالحزم أو باللين. وكان يدفع للجميع، الحراس والنزلاء، نفس المكافأة وهى ١٥ دولارًا يوميًا .

وكان تصميم التجربة أن تستمر أسبوعين. وفى اليوم الأول تم القبض على المتطوعين « نزلاء السجن » وذلك بمساعدة ضباط الشرطة المحليين (أى ضباط شرطة حقيقيون من أقسام الشرطة المختصة) ومن ثم تم تسليمهم إلى «سجن التجربة » فى قبو قسم علم النفس بجامعة « ستانفورد» حيث تم تسجيل أسمائهم والبيانات الضرورية عنهم، وحيث تسلم كل منهم الزى الموحد الخاص بالسجن والمتطلبات الشخصية مثل فوطة ، صابون ، معجون أسنان ... إلخ. وأودعوا الزنزانات الثلاث التى قسم السجن إليها . وقام « حراس السجن » بمراقبتهم، وارتدى هؤلاء الحراس الزى الخاص مزودين بالصفارات .

وقد توقع زمباردو ومعاونوه من المشرفين على التجربة فشلها وكان تخوفهم أن المتطوعين قد لا يتقمصون الأدوار التى حددت لهم – أو بمعنى آخر أن تعوزهم الانغماسية، ولكن الذى حدث أن الجميع شاركوا فى التجربة بحماس غير متوقع – وقد استمتع « حراس السجن » بدورهم وابتهجوا به ، ومارسوا رقابة صارمة على

نزلاء السجن وعملوا على زجرهم وتأنيبهم وغالوا فى ذلك بحيث أصيب « نزلاء السجن » بالتوتر والإحباط من جراء الممارسات « السادية » للحراس . وأبدى « نزلاء السجن » التذمر بسبب هذه الممارسات ولكن سرعان ما كفوا عن التذمر أو الشكوى .

وأصبح حديث «نزلاء السجن» يدور فى غالبيته العظمى عن الأحوال « داخل السجن » ونادرا ما تناولت أحاديثهم موضوعات أخرى بحيث أصبحوا كأنهم سجناء حقيقيون وليسوا طلابا فى الجامعة تجرى عليهم تجربة علمية تطوعوا باختيارهم للمشاركة فيها .

ومن الطريف أن نذكر أنه فى ثالث يوم من التجربة اضطر القائمون عليها إلى إخراج أحد المتطوعين من « نزلاء السجن » بسبب معاناته الشديدة من الاكتئاب واختلال التفكير والانقلاب الانفعالى ، وفى اليومين الرابع والخامس أخرج أربعة من نزلاء السجن بسبب ما بدا عليهم من أعراض الانهيار النفسى، وفى اليوم السادس حيث بقى من نزلاء السجن خمسة فقط كانوا جميعا على شفير الانهيار حيث اقتنع القائمون على التجربة بأنه قد حان الحين لإنهائها لأن التجربة فى نظرهم حققت الهدف المقصود منها .

وهذه التجربة كانت فتحا للاهتمام بموضوع الآثار النفسية للإقامة بالسجون (لمزيد من المعلومات عن الموضوع يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى كتابنا علم النفس الجنائى) .

★ ★ ★

الفصل التاسع
تاريخ علم النفس الجنائى

علم النفس الجنائى Criminal Psychology هو فرع من فروع علم النفس التطبيقى يهتم بتطبيق المعارف النفسية فى المجال الجنائى أو الإجرامى. وتدور موضوعات هذا العلم على دراسة السلوك الإجرامى وأسباب هذا السلوك، وكيف يمكن تصنيف المجرمين من حيث خصائصهم الجسمية أو النفسية، وهل يمكن مكافحة الجريمة؟، وما دور العقاب فى تحقيق الردع ؟ وهل يمكن أن تكون المؤسسات العقابية - السجون مثلا - مؤسسات إصلاحية ؟ إلى غير ذلك من موضوعات .

ومن ناحية التطور التاريخى فإنه لا يمكن بحال أن نفصل علم النفس الجنائى عن بقية فروع علم النفس، وخاصة التطبيقية، وذلك يتضح من سياق عرضنا لتاريخ علم النفس الجنائى فى النقاط الآتية :

البدايات التاريخية :

فى عام ١٨٩٣م وبالتحديد فى شهر مارس قام « جيمس ماكين كاتل Cattel بتوجيه بعض الأسئلة إلى مجموعة من طلاب جامعة « كولومبيا» مكونة من ٥٦ طالبا. وهذه الأسئلة من قبيل :

- عندما تقف الخيل فى مواجهة الريح هل توجه رأسها إلى الريح أم توجه مؤخرتها ؟

- كيف كان الطقس فى الأسبوع الماضى؟

- هل تسقط أوراق شجرة البلوط فى مطلع الخريف أم فى أواخره ؟

وعندما قدم « كاتل » هذه الأسئلة اعتبرت أول محاولة علمية لدراسة كيفية تقييم الشهادة من الناحية السيكولوجية ، ذلك لأن هذه الأسئلة هى من قبيل الأسئلة التى يمكن أن توجه من القاضى إلى الشهود .

وفى عصر « كاتل » - وهو فجر علم النفس التجريبى - كان علماء النفس فى أوربا - وخاصة ألمانيا - على قناعة بالأثر الذى لا يمكن إنكاره للإيحاء على عمليات الإحساس والإدراك فى المجالات اليومية المختلفة، ومنها مجال الشهادة الجنائية. وقد رأى « كاتل » فى حينه أن المحامى « خرب الذمة » يمكن أن يوجه إلى شاهد عدل صادق حسن النية العديد من الأسئلة الخبيثة بحيث تشكك فى شهادته وتجعلها تبدو قاصرة أو متناقضة . ولعل القضاة يعرفون - أكثر من غيرهم - أمثال هذه الأمور، هذا إلى جانب عوامل أخرى تؤثر على كفاءة الشهادة رغم حسن نية الشاهد ورغبته الأكيدة فى أن يعطى شهادة دقيقة موثوقا بها بسبب تعرضه للنسيان .

نعود إلى تجربة «كاتل » مع تلاميذه فقد أخطأ العديد منهم فى الإجابة عن أشياء يرونها بصفة دائمة حديثة الوقوع مما يدل على أن الإدراك والتذكر فى واقع الحياة اليومية يحيط بهما الخلط من كل جانب. بل الغريب أن بعض هؤلاء الطلاب كانوا واثقين من دقة إجابتهم على الأسئلة رغم وجود العديد من الأغلاط فيها .

وهذه التجربة تعتبر من بدايات علم النفس الجنائى؛ لأنها أثارت الاهتمام بدراسة العوامل النفسية التى تؤثر على كفاءة الشهادة القضائية . ومن الطريف أن نذكر أن هذه التجربة أجريت على عينات أخرى من الطلاب فى الجامعات الأمريكية الأخرى وكانت النتائج مشابهة إلى حد كبير لنتائج تجربة « كاتل » .

وفى «أوربا » قام العالم الفرنسى « ألفرد بينيه **Binet**» عام ١٩٠٠م بإجراء دراسات عن كفاءة الشهادة القضائية، ونشر عام ١٩٠٥م كتيبا عن دراسات علم

النفس القضائى . أضف إلى ذلك أن العالم الألمانى « وليم شترن Stern » (١٨٧١/ ١٩٣٨) أجرى عام ١٩٠١ تجربة رائدة فى مجال علم النفس الجنائى حضرها طلاب جامعة برلين الذين يدرسون القانون . وكانت التجربة عبارة عن معركة بين اثنين من الطلاب بسبب خلاف حول إحدى القضايا بحيث إن أحدهما سحب مسدسه فى مواجهة الآخر . وهنا تدخل العالم القائم بالتجربة وهو «شترن» وأنهى المشاجرة . (المشاجرة كانت تمثيلية مرتبة سلفا بين الطالبين المشاركين فيها بإيعاز من شترن) وبعد إنهاء المشاجرة طلب شترن من الطلاب المشاهدين - الذين يدرسون القانون - الإدلاء بشهادتهم حول الواقعة التى شاهدوها كتابة . ورغم أنهم طلاب يدرسون القانون ويعرفون العوامل المؤدية إلى تحريف الشهادة فإن أحدًا من الطلاب لم تكن شهادته دقيقة تمامًا، بل لقد حفلت جميع الشهادات بالأخطاء. وقد تراوحت هذه الأخطاء بين أربعة أخطاء إلى اثنى عشر خطأ لكل طالب .

ومن الطريف أن نذكر أن الواقعة الرئيسية فى هذه التجربة وهى سحب أحد المتشاجرين لمسدسه كانت مجالا للعديد من أخطاء الشهادة حيث بلغت الإثارة ذروتها عن سحبه، وقد توصل « شترن » إلى أن الانفعالات الشديدة تؤدى إلى تدنى كفاءة عملية الاسترجاع أو التذكر. بمعنى أن تحدث أخطاء فى التذكر والاسترجاع إذا كانت عملية المشاهدة - لواقعة ما - مشحونة بشحنة انفعالية قوية .

وقد استمر اهتمام « شترن » بموضوع الجوانب النفسية فى الشهادة القضائية. حيث أصدر عام ١٩٠٦ م دورية علمية تحت اسم « علم النفس والشهادة القضائية » . وهذه الدورية العلمية توسعت فيما بعد . وقد ناقشت هذه الدورية موضوعات مهمة فى المجال، مثل دور الأسئلة الإيحائية من المحقق فى تحريف الشهادة . والعوامل المؤدية إلى الانحياز فى الشهادة القضائية مثل الاتجاهات والأفكار المسبقة . وموضوعات أخرى مثل الشهادة الجنائية للأطفال والشهادة الجنائية للمسنين وأثر تقادم العهد بالواقعة على دقة الشهادة الجنائية بحيث يمكن